تفسير سورة الأنعام

قال الثعلبى : سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة وهى : ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، و﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات . قال ابن عطية: وهى الآيات المحكمات ، يعنى فى هذه السورة . وقال القرطبى : هى مكية إلا آيتين هما : ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره** ﴾ نزلت فى مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين ، وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات** ﴾ نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس[١] . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عنه قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح [٢] . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن أسماء قال :نزلت سورة الأنعام على النبى ﷺ وهو فى مسير فى زجل من الملائكة ، وقد نظموا ما بين السماء والأرض . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد نحوه [٣] . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ :« نزلت علىَّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد » [٤] . وهو من طريق إبراهيم بن نائلة شيخ الطبرانى عن إسماعيل بن عمرو عن يوسف بن عطية بن عون عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ فذكره . وابن مردويه رواه عن الطبرانى عن إسماعيل المذكور به .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ :« نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس والأرض ترتج » ، ورسول اللّه ﷺ يقول :«سبحان اللّه العظيم ، سبحان اللّه العظيم » [٥] . وأخرج الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والإسماعيلى فى معجمه ، والبيهقى عن جابر قال :لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول اللّه ﷺ ثم قال : « لقد

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٣٧٩ . وهذا القول لابن عباس وقتادة.

(٢) الطبرانى (١٢٩٣٠) وفيه على بن زيد وفيه كلام.

(٣) الطبرانى ٢٤/ ١٧٨ (٤٤٩، ٤٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣: «وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق».

(٤) الطبرانى فى الصغير، ترجمة إبراهيم بن نائلة ١/ ٨١ وقال: «لم يروه عن ابن عون إلا يوسف بن عطية، تفرد به إسماعيل بن عمرو» وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٢، ٢٣: «وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف».

(٥) البيهقى فى الشعب (٢٢١٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣ : « رواه الطبرانى عن شيخه محمد بن عبداللّه بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبى بكر السالمى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق »[١] . وأخرج البيهقى وضعفه، والخطيب فى تاريخه عن على بن أبى طالب قال : أنزل القرآن خمسًا خمسًا ، ومن حفظه خمسًا خمسًا لم ينسه ، إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكًا حتى أدوها إلى النبى ﷺ ، ما قرئت على عليل إلاشفاه اللّه[٢] . وأخرج أبو الشيخ عن أبىّ بن كعب مرفوعًا نحو حديث ابن عمر. وأخرج النحاس فى تاريخه عن ابن عباس قال :سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة :﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث .

وأخرج الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعًا : « ينادى مناد : يا قارئ سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها »[٣] . وأخرج ابن المنذر عن أبى جحيفة قال :نزلت سورة الأنعام جميعًا معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة** ﴾ فإنها مدنية. وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، والدارمى فى مسنده ، ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الأنعام من نواجب القرآن[٤] . وأخرج محمد ابن نصر عن ابن مسعود مثله.وأخرج السلفى بسند واه عن ابن عباس مرفوعًا : « من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى: ﴿ **ويعلم ما تكسبون** ﴾ نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم ، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مِرْزَبَة[٥] من حديد، فإن أوحى الشيطان فى قلبه شيئا من الشر ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجابًا ، فإذا كان يوم القيامة ، قال اللّه تعالى :« أنا ربك وأنت عبدى ، امش فى ظلى واشرب من الكوثر واغتسل من السلسبيل ، وادخل الجنة بغيرحساب ولا عذاب » . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ :« من صلى الفجر فى جماعة وقعد فى مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام وكل اللّه به سبعين ملكًا يسبحون اللّه ويستغفرون له إلى يوم القيامة » . وفى فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة ، وغير مرفوعة . قال القرطبى : قال العلماء: هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضى إنزالهاجملة واحدة ؛ لأنها فى معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين[٦] .

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣١٤، ٣١٥ على شرط مسلم وقال الذهبى: « لا واللّه لم يدرك جعفر السدى (إسماعيل) وأظن هذا موضوعًا » ، والبيهقى فى الشعب (٢٢٠٨) بإسناد رجاله موثقون ؛ ولكن فيه انقطاع .

(٢) البيهقى فى الشعب (٢٢١١) وقال : « وفى إسناده من لا يعرف » والخطيب فى تاريخه ٧/ ٢٧١ فى ترجمة الحسن بن أحمد بن الحسن أبو على الصيدلانى.

(٣) الديلمى (٨٨٦٨) .

(٤) الدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٥٣ . و نواجب القرآن : أفاضل سوره .

(٥) المرزبة بالتخفيف ويقال لها : الإرزبّة ـ بالهمزة والتشديد : المطرقة الكبيرة التى تكون للحداد .

(٦) القرطبى ٤/ ٢٣٨٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله ؛ للدلالة على أن الحمد كله لله ، ولإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعدلون. وقد تقدم فى سورة الفاتحة ما يغنى عن الإعادة له هنا ، ثم وصف نفسه بأنه الذى خلق السموات والأرض إخبارًا عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد ، والخلق يكون بمعنى الاختراع ، وبمعنى التقدير. وقد تقدم تحقيق ذلك . وجمع السموات ؛ لتعدد طباقها ، وقدمها على الأرض ؛ لتقدمها فى الوجود ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات : ٣٠] . وقوله : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ معطوف على خلق . ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله : ﴿ **خلق السموات والأرض** ﴾ ثم ذكر خلق الأعراض بقوله : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ لأن الجواهر لا تستغنى عن الأعراض .

واختلف أهل العلم فى المعنى المراد بالظلمات والنور، فقال جمهور المفسرين : المراد بالظلمات: سواد الليل ، وبالنور : ضياء النهار . وقال الحسن : الكفر والإيمان . قال ابن عطية : وهذا خروج عن الظاهر . انتهى . والأولى أن يقال : إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة ، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور ، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر، ونور الإيمان ﴿ أَوَ مَنْ كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ﴾ [الأنعام : ١٢٢] وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه ، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها . قال النحاس : جعل هنا : بمعنى خلق ، وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعد إلا إلى مفعول واحد . وقال القرطبى : جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره [1] . قال ابن عطية: وعليه يتفق اللفظ والمعنى فى النسق ، فيكون الجمع معطوفًا على الجمع ، والمفرد معطوفًا على المفرد ، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل ، ولهذا كان النهار مسلوخًا من الليل .

قوله : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ معطوف على الحمد لله ، أو على خلق السموات والأرض ، و« **ثم** » لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون ، مع ما تبين

(١) القرطبى ٤/ ٢٣٨٣ .

من أن اللّه سبحانه حقيق بالحمد ، على خلقه السموات والأرض ، والظلمات والنور ، فإن هذا يقتضى الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه ، لا الكفر به ، واتخاذ شريك له ، وتقديم المفعول للاهتمام ، ورعاية الفواصل ، وحذف المفعول لظهوره ، أى يعدلون به ما لا يقدر على شىء مما يقدر عليه ، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة ، حيث يكون منه سبحانه تلك النعم ، ويكون من الكفرة الكفر .

قوله : ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾ فى معناه قولان : أحدهما وهو الأشهر، وبه قال الجمهور أن المراد : آدم عليه السلام ، وأخرج مخرج الخطاب للجميع ؛ لأنهم ولده ونسله . الثانى : أن يكون المراد : جميع البشر باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها مخلوقة من الطين ، ذكر اللّه سبحانه خلق آدم وبنيه ، بعد خلق السموات والأرض ، اتباعًا للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، والمطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث ، وردّ لجحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمترون فيه . قوله : ﴿ **ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده** ﴾ جاء بكلمة « **ثم** » لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت .

وقد اختلف السلف ومن بعدهم فى تفسير الأجلين . فقيل : ﴿ **قضى أجلاً** ﴾ يعنى الموت ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ يعنى القيامة ، وهو مروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك ومجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم وعطية والسدى وخصيف ومقاتل وغيرهم . وقيل : الأول: ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثانى : ما بين أن يموت إلى أن يبعث ، وهو قريب من الأول . وقيل : الأول : مدة الدنيا ، والثانى : عمر الإنسان إلى حين موته . وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد . وقيل : الأول : قبض الأرواح فى النوم ، والثانى : قبض الروح عند الموت . وقيل : الأول : ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك ، والثانى : أجل الموت . وقيل : الأول لمن مضى ، والثانى :لمن بقى ولمن يأتى . وقيل : إن الأول : الأجل الذى هو محتوم ، والثانى : الزيادة فى العمر لمن وصل رحمه ، فإن كان برًا تقيًا وصولاً لرحمه زيد فى عمره ، وإن كان قاطعًا للرحم لم يزد له ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وما يُعمرمن معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ﴾ [فاطر : ١١] وقد صح عن رسول اللّه ﷺ أن صلة الرحم تزيد فى العمر [١] ، وورد عنه أن دخول البلاد التى قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت ، وجاز الابتداء بالنكرة فى قوله : ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ لأنها قد تخصصت بالصفة .

قوله : ﴿ **ثم أنتم تمترون** ﴾ استبعاد لصدور الشك منهم ، مع وجود المقتضى لعدمه ، أى كيف تشكون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الابتداء ؛ والابتداء ما يذهب بذلك

(١) روى مسلم فى صحيحه (٢٥٥٧ / ٢٠) عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « من سره أن يبسط عليه رزقه ، أو ينسأ فى أثره ، فليصل رحمه » . وينسأ : يؤخر ، أثره : الأجل ، لأنه تابع للحياة فى أثرها .

ويدفعه، فإن من خلقكم من طين وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتًا وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويرد إليها الأرواح التى فارقتها بقدرته، وبديع حكمته.

قوله : ﴿ **وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾ قيل : إن فى السموات وفى الأرض متعلق باسم الله باعتبار ما يدل عليه من كونه معبودًا ، ومتصرفًا ، ومالكًا ، أى هو المعبود أو المالك أو المتصرف فى السموات والأرض كما تقول :زيد الخليفة فى الشرق والغرب ، أى حاكم أو متصرف فيهما، وقيل المعنى : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ، فلا تخفى عليه خافية فيكون العامل فيهما ما بعدهما . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فيه . وقال ابن جرير هو: الله فى السموات ، ويعلم سركم وجهركم فى الأرض . والأول أولى ، ويكون ﴿ **يعلم سركم وجهركم** ﴾ جملة مقررة لمعنى الجملة الأولى ؛ لأن كونه سبحانه فى السماء والأرض يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشر ، وجلب النفع ودفع الضرر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على أن هذه الآية ــ أعنى ﴿ **الحمد لله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ ــ نزلت فى أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية فى الزنادقة ، قالوا : إن الله لم يخلق الظلمة ، ولا الخنافس ، ولا العقارب ، ولا شيئًا قبيحًا ، وإنما يخلق النور ، وكل شىء حسن ، فأنزلت فيهم هذه الآية. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ قال :الكفر والإيمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : إن الذين بربهم يعدلون : هم أهل الشرك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: ﴿ **يعدلون** ﴾ : يشركون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ قال : الآلهة التى عبدوها عدلوها بالله، وليس لله عدل ، ولا ند، وليس معه آلهة ، ولا اتخذ صاحبة ولا ولدا.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾ يعنى آدم ﴿ **ثم قضى أجلا** ﴾ يعنى أجل الموت ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ أجل الساعة والوقوف عند الله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عنه فى قوله : ﴿ **ثم قضى أجلا** ﴾ قال : أجل الدنيا ، وفى لفظ أجل موته ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ قال : الآخرة لا يعلمه إلا الله [1]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

(١) ابن جرير ٧/ ٩٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

عنه ﴿ قضى أجلا ﴾ قال : هو اليوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه من اليقظة ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ قال : هو أجل موت الإنسان .

﴿ وما تأتيهم مِنْ آية مِنْ آيات ربهم إلاَّ كانوا عنها معْرضين (٤) فقدْ كذَّبوا بالْحق لمَّا جاءهُمْ فسوْف يأتيهمْ أنباءُ ما كانوا به يستهْزءُونَ (٥) ألَمْ يروْا كمْ أهْلكْنا من قبْلهم مِّن قرْنٍ مكَّنَّاهُمْ في الأرْض ما لَمْ نُمكِّن لَّكُمْ وأرْسلْنا السَّماءَ عليْهم مدْرارًا وجعلْنا الأنْهارَ تجْري من تحْتهمْ فأهْلكْناهُم بذُنُوبهمْ وأنشأْنا منْ بعْدهمْ قرْنًا آخرين (٦) ولوْ نزَّلْنا عليْك كتابًا في قرْطاسٍ فلمسُوهُ بأيْديهمْ لقالَ الَّذين كفرُوا إنْ هذا إلاَّ سحْرٌ مُّبينٌ (٧) وقالُوا لوْلا أُنزلَ عليْه ملَكٌ ولوْ أنزلْنا ملَكًا لَّقُضيَ الأمْرُ ثُمَّ لا يُنظرُون (٨) ولوْ جعلْناهُ ملَكًا لَّجعلْناهُ رجُلاً وللبسْنا عليْهم ما يلْبسُونَ (٩) ولقدِ استُهْزئَ برُسُلٍ مِّن قبْلك فحاقَ بالَّذين سخرُوا منْهُم ما كانُوا به يسْتهْزءُونَ (١٠) قُلْ سيرُوا في الأرْض ثُمَّ انظُرُوا كيْفَ كانَ عاقبةُ الْمُكذِّبين (١١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم ﴾ إلخ .كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم ، وهو الإعراض عن آيات الله التى تأتيهم كمعجزات الأنبياء ، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة ، مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه ، والإعراض : ترك النظر فى الآيات التى يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله و « من » فى : ﴿ من آية ﴾ مزيدة للاستغراق و « من » فى : ﴿ من آيات ﴾ تبعيضية ، أى وما تأتيهم آية من الآيات التى هى بعض آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، والفاء فى : ﴿ فقد كذبوا ﴾ جواب شرط مقدر ، أى إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك وهو الحق ﴿ لما جاءهم ﴾ قيل : المراد بالحق هنا : القرآن. وقيل : محمد ﷺ ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى أخبار الشىء الذى كانوا به يستهزئون وهو القرآن أو محمد ﷺ ، على أن « ما » عبارة عن ذلك تهويلاً للأمر وتعظيمًا له ، أى سيعرفون أن هذا الشىء الذى استهزؤوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم كما يقال : اصبر فسوف يأتيك الخبر عند إرادة الوعيد والتهديد . وفى لفظ الأنباء ما يرشد إلى ذلك ، فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم .

قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ كلام مبتدأ لبيان ما تقدمه ، والهمزة للإنكار و « كم » يحتمل أن تكون الاستفهامية ، وأن تكون الخبرية ، وهى معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده ، و ﴿ من قرن ﴾ تمييز ، والقرن : يطلق على أهل كل عصر ، سموا بذلك لاقترانهم ، أى ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة فى عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم . وقيل : القرن : مدة من الزمان ، وهى ستون عامًا ، أو سبعون ، أو ثمانون ، أو مائة ، على اختلاف الأقوال ، فيكون ما فى الآية

على تقدير مضاف محذوف ، أى من أهل قرن . قوله : ﴿ **مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم** ﴾ مكن له فى الأرض : جعل له مكانًا فيها ، ومكنه فى الأرض : أثبته فيها ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : كيف ذلك ؟ وقيل : إن هذه الجملة صفة لقرن ، والأول أولى ، و« ما » فى: ﴿ **ما لم نمكن** ﴾ نكرة موصوفة بما بعدها ، أى مكناهم تمكينًا لم نمكنه لكم، والمعنى : أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا ، وطول الأعمار ، وقوة الأبدان ، وقد أهلكناهم جميعا ، فإهلاككم وأنتم دونهم بالأولى . قوله : ﴿ **وأرسلنا السماء عليهم مدرارا** ﴾ يريد المطر الكثير ، عبر عنه بالسماء ؛ لأنه ينزل من السماء ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

إذا نزل السماء بأرض قوم

والمدرار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كمذكار للمرأة التى كثرت ولادتها للذكور، ومينات للتى تلد الإناث ، يقال : درّ اللبن يدرّ : إذا أقبل على الحالب بكثرة . وانتصاب ﴿ **مدرارًا** ﴾ على الحال ، وجريان الأنهار من تحتهم معناه : من تحت أشجارهم ومنازلهم ، أى أن اللّه وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم فى الأرض فكفروها ، فأهلكهم اللّه بذنوبهم . ﴿ **وأنشأنا من بعدهم** ﴾ أى من بعد إهلاكهم ﴿ **قرنًا آخرين** ﴾ فصاروا بدلا من الهالكين ، وفى هذا بيان لكمال قدرته سبحانه ، وقوة سلطانه ، وأنه يهلك من يشاء ، ويوجد من يشاء .

قوله : ﴿ **ولو نزلنا عليك كتابًا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ فى هذه الجملة بيان شدة صلابتهم فى الكفر ، وأنهم لا يؤمنون ، ولو أنزل اللّه على رسوله كتابا مكتوبا فى قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين :حاسة البصر، وحاسة اللمس ﴿ **لقال الذين كفروا**﴾ منهم ﴿ **إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم فى المرئى المحسوس ، فكيف فيما هو مجرد وحى إلى رسول اللّه ﷺ بواسطة ملك لايرونه ولا يحسونه ؟ والكتاب : مصدر بمعنى الكتابة ، والقرطاس : الصحيفة .

قوله : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ وكفرهم بها ، أى قالوا : هلا أنزل اللّه عليك ملكًا نراه ويكلمنا أنه نبى حتى نؤمن به ونتبعه ؟ كقولهم : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ [الفرقان : ٧] ﴿ **ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر** ﴾ أى لو أنزلنا ملكًا على الصفة التى اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم ﴿ **لقضى الأمر** ﴾ أى لأهلكناهم ، إذ لم يؤمنوا عند نزوله ، ورؤيتهم له؛ لأن مثل هذه الآية البينة ، وهى نزول الملك على تلك الصفة ، إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد

(١) الشاعر : معود الحكماء معاوية بن مالك ، وتمام البيت :

رعيناه وإن كانوا غضابا

استحقوا الإهلاك ، والمعاجلة بالعقوبة ﴿ **ثم لا ينظرون** ﴾ أى لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له. وقيل : إن المعنى : إن اللّه سبحانه لو أنزل ملكًا مشاهدًا لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء ، بل تزهق أرواحهم عند ذلك ، فيبطل ما أرسل اللّه له رسله، وأنزل به كتبه من هذا التكليف ، الذى كلف به عباده ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ [الكهف : ٧] .

قوله : ﴿ **ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا** ﴾ أى لو جعلنا الرسول إلى النبى ملكًا يشاهدونه ويخاطبونه لجعلنا ذلك الملك رجلاً ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التى خلقه اللّه عليها ، إلا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بنى آدم ؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه ، فلو جعل اللّه سبحانه الرسول إلى البشر أو الرسول إلى رسوله ملكًا مشاهدًا مخاطبًا لنفروا منه ، ولم يأنسوا به ، ولداخلهم الرعب ، وحصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه ومشاهدته ، هذا أقل حال فلا تتم المصلحة من الإرسال . وعند أن يجعله اللّه رجلاً، أى على صورة رجل من بنى آدم ليسكنوا إليه ويأنسوا به، سيقول الكافرون : إنه ليس بملك وإنما هو بشر، ويعودون إلى مثل ما كانوا عليه .

قوله : ﴿ **وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ أى لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم ؛ لأنهم إذا رأوه فى صورة إنسان قالوا : هذا إنسان وليس بملك ، فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه ، قال الزجاج : المعنى : للبسنا عليهم ، أى على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم ، وكانوا يقولون لهم : إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق ، فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم ، فأعلم اللّه عز وجل أنه لو نزل ملكًا فى صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون . واللبس : الخلط، يقال : لبست عليه الأمر ألبسه لبسًا ، أى خلطته ، وأصله : التستر بالثوب ونحوه ، ثم قال سبحانه مؤنسًا لنبيه ﷺ ومسليًا له : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ يقال : حاق الشىء يَحيق حَيْقًا وحُيُوقًا وَحَيَقانًا : نزل ، أى فنزل ما كانوا به يستهزئون ، وأحاط بهم ، وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به ، ﴿ **قل سيروا فى الأرض** ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين : سافروا فى الأرض ، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات ، وكيف كانت عاقبتهم بعدما كانوا فيه من النعيم العظيم ، الذى يفوق ما أنتم فيه فهذه ديارهم وجناتهم مغبرة ، وأراضيهم مكفهرة ، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون ، وبعد هلاكهم هالكون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ يقول : ما يأتيهم من شىء من كتاب اللّه إلا أعرضوا عنه ، وفى قوله : ﴿ **فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون** ﴾ يقول: سيأتيهم يوم القيامة

أنباء ما استهزؤوا به من كتاب اللّه عز وجل . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿**من قرن**﴾ قال : أمة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم** ﴾ يقول : أعطيناهم ما لم نعطكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا** ﴾ يقول : يتبع بعضها بعضا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن هارون التيمى فى الآية قال : المطر فى إبانه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم** ﴾ يقول : لو أنزلنا من السماء صحفًا فيها كتاب ﴿ **فلمسوه بأيديهم**﴾ لزادهم ذلك تكذيبًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ قال : فمسوه ونظروا إليه لم يصدقوا به .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال : دعا رسول اللّه ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فيما بلغنى، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب ، والنضربن الحارث بن كلدة ، وعبدة بن عبد يغوث ، وأبى بن خلف بن وهب ، والعاص بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك . فأنزل اللّه : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ [1] قال : ملك فى صورة رجل ﴿ **ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر** ﴾ لقامت الساعة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **لقضى الأمر** ﴾ يقول : لو أنزل اللّه ملكًا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو أنزلنا ملكًا** ﴾ قال : ولو أتاهم ملك فى صورته ﴿**لقضى الأمر** ﴾ لأهلكناهم ﴿ **ثم لا ينظرون** ﴾ لا يؤخرون ﴿ **ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلا** ﴾ قال : فى صورة رجل فى خلق رجل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **ولوجعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً**﴾ يقول : فى صورة آدمى . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وللبسنا عليهم** ﴾ يقول : شبهنا عليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال : مرّ رسول اللّه ﷺ فيما بلغنى بالوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وأبى جهل بن هشام ، فهمزوه واستهزؤوا به فغاظه ذلك ، فأنزل اللّه : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ [2] .

(١) ابن إسحاق ٢/ ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٤٦ .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) ﴾

قوله : ﴿ **قل لمن ما فى السموات والأرض** ﴾ هذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم . والمعنى: قل لهم هذا القول ، فإن قالوا فقل : لله ، وإذا ثبت أن له ما فى السموات والأرض إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ، ولكنه كتب على نفسه الرحمة ، أى وعد بها فضلاً منه وتكرمًا ، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكد وعده وارتفاع الوسائط دونه، وفى الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده، لا يعاجلهم بالعقوبة ، وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة ، ومن رحمته لهم : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ونصب الأدلة .

قوله : ﴿ **ليجمعنكم إلى يوم القيامة** ﴾ اللام جواب قسم محذوف قال الفراء وغيره : يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله : ﴿ **الرحمة** ﴾ ويكون ما بعدها مستأنفا على جهة التبيين فيكون المعنى : ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ : ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم . وقيل : المعنى : ليجمعنكم فى القبور إلى اليوم الذى أنكرتموه . وقيل : « إلى » بمعنى فى ، أى ليجمعنكم فى يوم القيامة. وقيل : يجوز أن يكون موضع ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ النصب على البدل من الرحمة فتكون اللام بمعنى « أن ». والمعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم كما قالوا فى قوله تعالى: ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ﴾ [يوسف : ٣٥] أى أن يسجنوه . وقيل : إن جملة : ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ مسوقة للترهيب بعد الترغيب ، وللوعيد بعد الوعد ، أى إن أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم ثم معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة ، والضمير

فى : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ لليوم أو للجمع .

قوله : ﴿ **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ . قال الزجاج : إن الموصول مرتفع على الابتداء ، وما بعده خبره كما تقول : الذى يكرمنى فله درهم ، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقال الأخفش : إن شئت كان ﴿ **الذين** ﴾ فى موضع نصب على البدل من الكاف والميم فى : ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ أى ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم ، وأنكره المبرد وزعم أنه خطأ؛ لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب ، لا يقال : مررت بك زيد ولا مررت بى زيد. وقيل: يجوز أن يكون ﴿ **الذين** ﴾ مجرورًا على البدل من المكذبين الذين تقدم ذكرهم، أو على النعت لهم . وقيل : إنه منادى وحرف النداء مقدر .

قوله : ﴿ **وله ما سكن فى الليل والنهار** ﴾ أى لله ، وخص الساكن بالذكر ؛ لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة . وقيل : المعنى : ما سكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة .

قوله : ﴿ **قل أغير اللّه أتخذ وليًا** ﴾ الاستفهام للإنكار ، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام ، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير اللّه وليًا ، لا لاتخاذ الولى مطلقًا، دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل . والمراد بالولى هنا : المعبود، أى كيف أتخذ غير اللّه معبودًا ؟ و ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ مجرور على أنه نعت لاسم اللّه ، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، وأجاز الزجاج النصب على المدح ، وأجاز أبو على الفارسى نصبه بفعل مضمر كأنه قيل : أترك فاطر السموات والأرض . قوله : ﴿ **وهو يطعِم ولا يُطعَم** ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين فى الأول ، وضمها وفتح العين فى الثانى ، أى يرزق ولا يُرزق ، وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش بفتح الياء فى الثانى وفتح العين ، وقرئ بفتح الياء والعين فى الأول ، وضمها وكسر العين فى الثانى ، على أن الضمير يعود إلى الولى المذكور ، وخص الإطعام دون غيره من ضروب الإنعام ؛ لأن الحاجة إليه أمس .

قوله : ﴿ **قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم** ﴾ أمره سبحانه بعد ما تقدم من اتخاذ غير اللّه وليًا أن يقول لهم إنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه . وأخلص من أمته، وقيل :معنى ﴿ **أسلم** ﴾ : استسلم لأمر اللّه ، ثم نهاه اللّه عز وجل أن يكون من المشركين . والمعنى : أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك ، أى يقول لهم هذا ، ثم أمره أن يقول : ﴿ **إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ أى إن عصيته بعبادة غيره ، أو مخالفة أمره ونهيه ، والخوف : توقع المكروه . وقيل : هو هنا بمعنى العلم ، أى إنى أعلم إن عصيت ربى أن لى عذابًا عظيمًا .

قوله : ﴿ **من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه** ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل مكة وابن عامر على البناء للمفعول ، أى من يصرف عنه العذاب ، واختار هذه القراءة سيبويه ، وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل وهو اختيار أبى حاتم ، فيكون الضمير على هذه القراءة لله . ومعنى ﴿ **يومئذ** ﴾ :

يوم العذاب العظيم ﴿ **فقد رحمه** ﴾ اللّه ، أى نجاه وأنعم عليه وأدخله الجنة ، والإشارة بذلك إلى الصرف ، أو إلى الرحمة ، أى فذلك الصرف أو الرحمة ﴿ **الفوز المبين** ﴾ أى الظاهر الواضح ، وقرأ أبىّ : ﴿ **من يُصرف عنه** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن يمسسك اللّه بضر** ﴾ أى إن ينزل اللّه بك ضرًا من فقر أو مرض ﴿ **فلا كاشف له إلا هو** ﴾ أى لا قادر على كشفه سواه ﴿ **وإن يمسسك بخير** ﴾ من رخاء أو عافية ﴿**فهو على كل شىء قدير** ﴾ ومن جملة ذلك المس بالشر والخير . قوله : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ القهر : الغلبة . والقاهر : الغالب ، وأقهر الرجل : إذا صار مقهورًا ذليلاً ، ومنه قول الشاعر [1] :

تَمَنَّى حُصَين أنْ يَسُودَ جذاعةً فَأمْسَى حُصَين قد أذلَّ وأقْهَرا

ومعنى : ﴿ **فوق عباده** ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم لا فوقية المكان كما تقول : السلطان فوق رعيته ، أى بالمنزلة والرفعة ، وفى القهر معنى زائد ليس فى القدرة، وهو منع غيره من بلوغ المراد ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ فى أمره ﴿ **الخبير** ﴾ بأفعال عباده . قوله : ﴿ **قل أى شىء أكبر شهادة** ﴾ أى مبتدأ ، وأكبر خبره ، وشهادة تمييز ، والشىء يطلق على القديم والحادث ، والمحال ، والممكن . والمعنى : أىُّ شهيد أكبر شهادة ، فوضع شىء موضع شهيد . وقيل : إن ﴿ **شىء** ﴾ هنا موضوع موضع اسم الله تعالى ، والمعنى:الله أكبر شهادة ، أى انفراده بالربوبية ، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم ، فهو شهيد بينى وبينكم . وقيل : إن قوله : ﴿ **اللّه شهيد بينى وبينكم** ﴾ هو الجواب ؛ لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم ، كان أكبر شهادة له ﷺ . وقيل : إنه قد تم الجواب عند قوله : ﴿ **قل اللّه** ﴾ يعنى اللّه أكبر شهادة، ثم ابتدأ فقال : ﴿**شهيد بينى وبينكم** ﴾ أى هو شهيد بينى وبينكم .

قوله : ﴿ **وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ أى أوحى اللّه إلىّ هذا القرآن الذى تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به ، وأنذر به من بلغ إليه ، أى كل من بلغ إليه من موجود ، ومعدوم ، وسيوجد فى الأزمنة المستقبلة ، وفى هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجودًا وقت النزول ما لايحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة فى علم أصول الفقه ، وقرأ أبو نَهيك : « وَأُوْحَى » على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عدى على البناء للمفعول . قوله : ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع اللّه آلهة أخرى** ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم ، وإنما قال :﴿ **آلهة أخرى** ﴾ لأن الآلهة جمع ، والجمع يقع عليه التأنيث ، كذا قال الفراء ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وللّه الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال : ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ [طه : ٥١] .﴿ **قل لا أشهد** ﴾ أى فأنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه ، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة ، ومثله:

(١) ربيعة بن مالك بن عوف يهجو الزبرقان بن بدر وقومه .

﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ [الأنعام : ١٥٠] . و « ما » فى ﴿ **مما تشركون** ﴾ موصولة أو مصدرية ، أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة ، أو من إشراككم باللّه .

قوله : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ الكتاب للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما ، أى يعرفون رسول اللّه ﷺ . قال به جماعة من السلف ، وإليه ذهب الزجاج . وقيل : إن الضمير يرجع إلى الكتاب ، أى يعرفونه معرفة محققة ، بحيث لا يلتبس عليهم منه شىء ، و﴿ **كما يعرفون أبناءهم** ﴾ بيان لتحقيق تلك المعرفة وكمالها ، وعدم وجود شك فيها ، فإن معرفة الآباء للأبناء هى المبالغة إلى غاية الإتقان ، إجمالاً وتفصيلاً . قوله : ﴿ **الذين خسروا أنفسهم** ﴾ فى محل رفع على الابتداء وخبره : ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ ودخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط . وقيل : إن الموصول خبر مبتدأ محذوف . وقيل : هو نعت للموصول الأول وعلى الوجهين الأخيرين يكون : ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ معطوفًا على جملة : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ والمعنى على الوجه الأول : أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم ، وتمردهم لا يؤمنون بما جاء به رسول اللّه ﷺ ، وعلى الوجهين الأخيرين : أن أولئك الذين آتيناهم الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق ، وعدم العمل بالمعرفة التى ثبتت لهم فهم لا يؤمنون .

قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبًا** ﴾ أى اختلق على اللّه الكذب فقال : إن فى التوراة والإنجيل ما لم يكن فيهما ﴿ **أو كذب بآياته** ﴾ التى يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البينة ، فجمع بين كونه كاذبًا على اللّه ومكذبًا بما أمره اللّه بالإيمان به ، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد اللّه أظلم منه ، والضمير فى : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ للشأن .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سلمان الفارسى قال : إنا نجد فى التوراة أن اللّه خلق السموات والأرض ، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة فبها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتبادلون ، وبها يتزاورون ، وبها تحن الناقة ، وبها تنتج البقرة ، وبها تيعر الشاة ، وبها تتابع الطير ، وبها تتابع الحيتان فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ماعنده ورحمته أفضل وأوسع [١] . وقد أخرج مسلم وأحمد وغيرهما عن سلمان عن النبى ﷺ قال : « خلق اللّه يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة : منها رحمة يتراحم بها الخلق ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة » [٢] . وثبت فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : «لما قضى اللّه الخلق كتب كتابًا فوضعه عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت

---

(١) ابن جرير ٧/ ٩٩ .

(٢) أحمد ٥/ ٤٣٩ ومسلم فى التوبة (٢٧٥٣ / ٢٠ ، ٢١) والطبرانى (٦١٢٦) .

غضبى »[١]، وقد روى من طرق أخرى بنحو هذا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وله ما سكن فى الليل والنهار** ﴾ يقول : ما استقر فى الليل والنهار ، وفى قوله: ﴿ **قل أغير الله أتخذ وليًا** ﴾ قال : أما الولى فالذى تولاه ويقرله بالربوبية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ قال : بديع السموات والأرض . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وابن جرير وابن الأنبارى عنه قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ؟ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول : أنا ابتدأتها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وهو يطعم ولا يطعم** ﴾ قال : يرزق ولا يرزق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **من يصرف عنه** ﴾ قال : من يصرف عنه العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وإن يمسسك بخير** ﴾ يقول : بعافية .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: جاء النحام [٢] بن زيد ، وقردم بن كعب ، وبحرى بن عمرو، فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلهًا غيره ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله ، بذلك بُعثت وإلى دلك أدعو » ، فأنزل الله : ﴿ **قل أى شىء أكبر شهادة** ﴾ الآية [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد قال : أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشًا أى شىء أكبر شهادة ؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول : الله شهيد بينى وبينكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وأوحى إلىّ هـذا القرآن لأنذركم به** ﴾ يعنى أهل مكة ﴿ **ومن بلغ** ﴾ يعنى من بلغه هـذا القرآن من الناس فهو نذير له . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن** ﴾ كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشى وكل جبار ، يدعوهم إلى الله عز وجل . وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى ﷺ . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من بلغه القرآن فكأنما شافهته به »، ثم قرأ : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٤) وفى التوحيد (٧٤٠٤ ، ٧٤٥٣ ، ٧٥٥٤) وتعليقا (٧٥٥٣) ومسلم فى التوبة (٢٧٥١/ ١٤ ـ ١٦) والنسائى فى الكبرى فى النعوت (٧٧٥٠ ، ٧٧٥١) .

(٢) فى المطبوعة : « النمام » والصحيح : « النحام »كما فى المخطوطة ، وكما عند ابن إسحاق وابن جرير .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٩ ، ٢١٠ وابن جرير ٧/ ١٠٤ .

عن محمد بن كعب القرظى قال: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبىّ ﷺ . وفى لفظ : من بلغه القرآن حتى تفهمه وتعقله كان كمن عاين رسول الله ﷺ وكلمه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به**﴾ قال :العرب ﴿ **ومن بلغ** ﴾ قال : العجم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال النضر وهو من بنى عبد الدار : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى فأنزل الله : ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا** ﴾ الآية .

﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)** ﴾

قولـه : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ قـرأ الجمهـور بالنون فى الفعلين ، وقرئ بالياء فيهما ، وناصب الظـرف محذوف مقدر متأخرًا ، أى يوم نحشرهم كان كيت وكيت . والاستفهام فى : ﴿ **أين شركاؤكم** ﴾ للتقريع والتوبيخ للمشركين ، وأضاف الشركاء إليهم ؛ لأنها لم تكن شركاء لله فى الحقيقـة ، بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم، وهى ما كانوا يعبدونه من دون الله ، أو يعبدونه مع الله . قوله : ﴿ **الذين كنتم تزعمون** ﴾ أى تزعمونها شركاء فحذف المفعولان معًا ، ووجه التوبيخ بهذا الاستفهام : أن معبوداتهم غابت عنهم فى تلك الحال أو كانت حاضرة ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه ، فكان وجودها كعدمها .

قوله : ﴿ **ثـم لم تكـن فتنتهـم إلا أن قالـوا واللّه ربنـا ماكنـا مشركـين** ﴾ قال الزجاج : تأويل هذه الآية : أن الله عز وجل أخبر بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم ، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حتى رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك ، ونظير هذا فى اللغة أن ترى إنسانًا يحب غاويا ، فإذا وقع فى هلكة تبرأ منه فتقول : ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه. انتهى .

فالمراد بالفتنة على هذا : كفرهم ، أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى افتخروا به وقاتلوا عليه إلا ما وقع منهم من الجحود والحلف على نفيه بقولهم : ﴿ **واللّه ربنا ما كنا مشركين** ﴾ وقيل : المراد بالفتنة هنا : جوابهم ، أى لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرى ، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذبا ، وجملة : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ معطوفة على عامل الظرف المقدر كما مر والاستثناء مفرغ ، وقرئ :« فتنتهم » بالرفع والنصب ، ويكن وتكن والوجه ظاهر ، وقرئ : « وما كان فتنتهم » وقرئ : « ربنا » بالنصب على النداء ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ بإنكار ما وقع منهم فى الدنيا من الشرك ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى زال وذهب افتراؤهم ، وتلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من أن الشركاء يقربونهم إلى اللّه .هذا على أن « ما » مصدرية . وقيل : هى موصولة عبارة عن الآلهة ، أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون اللّه فلم يغن عنهم شيئا . وهذا تعجيب لرسول اللّه ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة . وقيل : لا يجوز أن يقع منهم كذب فى الآخرة ؛ لأنها دار لايجرى فيها إلا الصدق ، فمعنى ﴿ **واللّه ربنا ما كنا مشركين** ﴾ : نفى شركهم عند أنفسهم وفى اعتقادهم ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ ولا يكتمون اللّه حديثا ﴾ [النساء : ٤٢] .

قوله : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين فى الدنيا ، والضمير عائد إلى الذين أشركوا ، أى وبعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم ، والأكنة : الأغطية جمع كنان مثل الأسنة والسنان ،كننت الشىء فى كنه [1] : إذا جعلته فيه ، وأكننته : أخفيته ، وجملة :﴿ **جعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ مستأنفة للإخبار بمضمونها ، أو فى محل نصب على الحال، أى وقد جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا القرآن، أولئلا يفقهوه ، والوقر : الصمم ، يقال : وقرت أذنه تقر وقرا ، أى صمت . وقرأ طلحة بن مصرف : « وِقرًا » بكسر الواو ، أى جعل فى آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير ، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله ؛ وذكر الأكنة والوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه ،كأن قلوبهم لا تعقل وأسماعهم لا تدرك ﴿ **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾ أى لا يؤمنوا بشىء من الآيات التى يرونها من المعجزات ، ونحوها لعنادهم وتمردهم .

قوله: ﴿ **حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ «حتى» هنا هى الابتدائية التى تقع بعدها الجمل ، وجملة : ﴿ **يجادلونك** ﴾ فى محل نصب على الحال. والمعنى: أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاؤوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان ؛ بل يقولون: إن هذا إلا أساطير الأولين. وقيل: «حتى» هى الجارة وما بعدها فى محل جر، والمعنى: حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون : إن هذا إلا أساطير الأولين ، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد. والأساطير قال الزجاج: واحدها أسطار. وقال الأخفش: أسطورة. وقال أبو عبيدة: أسطارة.

---

(١) الكن : ما يحفظ فيه الشىء . اللسان ١٣ / ٣٦١ .

وقال النحاس: أسطور. وقال القشيرى: أسطير. وقيل: هو جمع لا واحد له كعباديد وأبابيل، والمعنى: ما سطره الأولون فى الكتب من القصص والأحاديث. قال الجوهرى: الأساطير: الأباطيل والترهات.

قوله : ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾ أى ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن ، أو بمحمد ﷺ ويبعدون هم فى أنفسهم عنه . وقيل : إنها نزلت فى أبى طالب ، فإنه ينهى الكفار عن أذية النبى ﷺ ويبعد هو عن إجابته ﴿ **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ أى ما يهلكون بما يقع منهم من النهى والنأى إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه ، والحال أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذى جلبوه على أنفسهم .

قوله : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية . وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضى تنبيهًا على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعانى ، و﴿ **وُقفوا** ﴾ معناه : حبسوا، يقال : وقفته وقفًا ووقف وقوفًا . وقيل : معنى ﴿ **وقفوا على النار** ﴾ : أدخلوها ، فتكون : « على » بمعنى : « فى » . وقيل : هى بمعنى : الباء ، أى وقفوا بالنار، أى بقربها معاينين لها ، ومفعول ترى محذوف وجواب « لو » محذوف ليذهب السامع كل مذهب ، والتقدير : لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظرا هائلاً وحالاً فظيعًا ﴿ **فقالوا ياليتنا نرد** ﴾ أى إلى الدنيا ﴿ **ولانكذب بآيات ربنا** ﴾ أى التى جاءنا بها رسوله ﷺ ﴿ **ونكون من المؤمنين** ﴾ بها العاملين بما فيها ، والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمنى ، أى تمنوا الرد ، وأن لا يكذبوا ، وأن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة هى قراءة الكسائى وأهل المدينة وشعبة وابن كثير وأبى عمرو . وقرأ حفص وحمزة بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمنى ، واختار سيبويه القطع فى ﴿ **ولا نكذب** ﴾ فيكون غير داخل فى التمنى، والتقدير : ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب ، أى لا نكذب رددنا أو لم نرد ، قال : وهو مثل : دعنى ولا أعود ، أى لا أعود على كل حال تركتنى أو لم تتركنى. واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمنى بقوله : ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ لأن الكذب لا يكون فى التمنى . وقرأ ابن عامر:﴿ **ونكون** ﴾ بالنصب وأدخل الفعلين الأولين فى التمنى . وقرأ أبىّ : « ولا نكذب بآيات ربنا أبدا » وقرأ هو وابن مسعود : « يا ليتنا نرد فلا نكذب » بالفاء والنصب ، والفاء ينصب بها فى جواب التمنى كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، وقال أكثر البصريين : لا يجوز الجواب إلا بالفاء .

قوله : ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ هذا إضراب عما يدل عليه التمنى من الوعد بالإيمان والتصديق ، أى لم يكن ذلك التمنى منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد ؛ بل هو لسبب آخر ، وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون ، أى يجحدون من الشرك وعرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا إلى التمنى والمواعيد الكاذبة. وقيل : بدالهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم . وقيل : بدا لهم ماكانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ [الزمر : ٤٧] . وقال المبرد :

بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه وهو مثل المعنى : أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة ﴿ **ولو ردوا** ﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿**لعادوا** ﴾ لفعل ما نهوا عنه من القبائح التى رأسها الشرك كما عاين إبليس ما عاين من آيات اللّه ثم عاند ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ أى متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا . وقيل : المعنى : وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان . وقرأ يحيى بن وثاب :« ولو ردوا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل رددوا، فنقلت كسرة الدال إلى الراء، وجملة :﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ معترضة بين المعطوف وهو : ﴿ **وقالوا** ﴾ وبين المعطوف عليه وهو : ﴿ **لعادوا** ﴾ أى لعادوا إلى مانهوا عنه ﴿ **وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ أى ما هى إلا حياتنا الدنيا ﴿ **وما نحن بمبعوثين** ﴾ بعد الموت ، وهذا من شدة تمردهم وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث .

قوله : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قوله : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار** ﴾ أى حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم . وقيل : « على » بمعنى :« عند » ، وجواب « لو » محذوف ، أى لشاهدت أمرًا عظيما ، والاستفهام فى : ﴿ **أليس هذا بالحق** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، أى أليس هذا البعث الذى ينكرونه كائنًا موجودًا ، وهذا الجزاء الذى يجحدونه حاضرًا. ﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم ﴿ **قال فذوقوا العذاب** ﴾ الذى تشاهدونه وهو عذاب النار ﴿ **بما كنتم تكفرون** ﴾ أى بسبب كفركم به أو بكل شىء مما أمرتم بالإيمان به فى دار الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ قال: معذرتهم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ قال : حجتهم ﴿ **إلا أن قالوا واللّه ربنا ما كنا مشركين** ﴾ يعنى المنافقين والمشركين قالوا وهم فى النار : هلم فلنكذب فلعله أن ينفعنا . فقال اللّه : ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم** ﴾ فى القيامة ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ يكذبون فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **واللّه ربنا ما كنا مشركين** ﴾ ثم قال : ﴿ ولا يكتمون اللّه حديثا ﴾ [النساء : ٤٢] ، قال : بجوارحهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ قال : باعتذارهم الباطل ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ قال: ما كانوا يشركون. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله :﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ قال: قريش، وفى قوله: ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة** ﴾ قال: كالجعبة للنبل. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** ﴾ قال : يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئًا كمثل البهيمة التى لا تسمع النداء ولا تدرى ما يقال لها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : الغطاء أكن قلوبهم أن يفقهوه ، والوقر: الصمم، و﴿ **أساطير الأولين** ﴾: أساجيع الأولين. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال:

أساطير الأولين : أحاديث الأولين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن قتادة قال : أساطير الأولين : كذب الأولين وباطلهم .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾ قال :نزلت فى أبى طالب كان ينهى المشركين أن يردوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به [1] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن القاسم بن مخيمرة نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به ، وينأون عنه : يتباعدون . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه قال : لا يلقونه ولا يدعون أحدًا يأتيه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن الحنفية فى الآية قال: كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يحبونه. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: ينهون عن القرآن وعن النبى ﷺ ، وينأون عنه: يتباعدون عنه. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال فى الآية قال: نزلت فى عمومة النبى ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه فى العلانية، وأشد الناس عليه فى السر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ قال : من أعمالهم ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه** ﴾ يقول : ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التى كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء التى كانوا نهوا عنها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى ، فقال : ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه** ﴾ أى ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حيل بينهم وبينه أول مرة وهم فى الدنيا .

﴿ **قَدْ خسِرَ الَّذين كذَّبُوا بلقاء الله حَتَّىٰ إذا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَة قَالُوا يا حَسْرَتَنا علَىٰ ما فَرَّطْنا فيها وَهُمْ يَحْملُونَ أَوْزَارَهُمْ علَىٰ ظُهُورهمْ أَلا سَاءَ مَا يَزرُونَ (٣١) وَمَا الْحياةُ الدُّنْيا إلاَّ لَعبٌ ولَهوٌ وَللدَّارُ الآخرةُ خيْرٌ لِّلَّذين يتَّقُونَ أفلا تَعْقلُون (٣٢) قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ ليَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فَإنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكنَّ الظَّالمين بآيَات اللَّه يَجْحَدُونَ (٣٣) ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ منْ قَبْلكَ فَصَبَرُوا علَىٰ ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ولا مُبَدِّلَ لكَلمات الله ولَقَدْ جَاءَكَ منْ نَبَأ الْمُرْسَلين (٣٤) وإن كان كَبُرَ عَلَيْكَ إعْرَاضُهُمْ فَإن اسْتَطَعْتَ أن تَبْتَغيَ نَفَقًا في الأَرْض أَوْ** ﴾

(١) ابن جرير٧/ ١١٠ والطبرانى (١٢٦٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣ :« وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة وغيره، وضعفه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله ثقات » وصححه الحاكم ٢/ ٣١٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٤٠ ، ٣٤١ .

سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾

قوله : ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله** ﴾ هم الذين تقدم ذكرهم . والمراد من تكذيبهم بلقاء الله : تكذيبهم بالبعث . وقيل : تكذيبهم بالجزاء . والأول أولى ؛ لأنهم الذين قالوا قريبًا: ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام : ٢٩] ﴿ **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة** ﴾ أى القيامة ، وسميت ساعة ؛ لسرعة الحساب فيها. ومعنى بغتة : فجأة ، يقال : بغتهم الأمر يبغتهم بغتًا وبغتة . قال سيبويه : وهى مصدر فى موضع الحال ، قال : ولا يجوز أن يقاس عليه ، فلا يقال : جاء فلان سرعة ، و« حتى » غاية للتكذيب لا للخسران ، فإنه لاغاية له ، ﴿ **قالوا يا حسرتنا** ﴾ هذا جواب ﴿ **إذا جاءتهم** ﴾ أوقعوا النداء على الحسرة ، وليست بمنادى فى الحقيقة ليدل ذلك على كثرة تحسرهم . والمعنى : يا حسرتنا احضرى فهذا أوانك ، كذا قال سيبويه فى هذا النداء وأمثاله كقولهم : يا للعجب ، ويا للرجل . وقيل : هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة ، كأنهم قالوا: يأيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة ، والحسرة : الندم الشديد ﴿ **على ما فرطنا فيها** ﴾ أى على تفريطنا فى الساعة ، أى فى الاعتداد لها ، والاحتفال بشأنها والتصديق بها ، ومعنى فرطنا : ضيعنا ، وأصله : التقدم ، يقال : فرط فلان ، أى تقدم وسبق إلى الماء ، ومنه قوله ﷺ : «وأنا فرطكم على الحوض»، ومنه الفارط، أى المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم: ﴿**على ما فرطنا**﴾ أى على ما قدمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها، وقال ابن جرير الطبرى: إن الضمير فى: ﴿ **فرطنا فيها** ﴾ يرجع إلى الصفقة ، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، والدنيا بالآخرة ﴿ **قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها** ﴾ فى صفقتنا ، وإن لم تذكر فى الكلام فهو دال عليها ؛ لأن الخسران لا يكون إلا فى صفقة . وقيل : الضمير راجع إلى الحياة ، أى على ما فرطنا فى حياتنا .

قوله : ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ هذه الجملة حالية ، أى يقولون تلك المقالة والحال أنهم ﴿ **يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ أى ذنوبهم ، جمع وزر يقال : وزر يزر ، فهو وَازِرٌ موزور ، وأصله من الوزر. قال أبو عبيدة : يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع : احمل وزرك ، أى ثقلك ، ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية ، والمعنى : أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها ، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل ﴿ **ألا ساء ما يزرون** ﴾ أى بئس ما يحملون .

قوله : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو** ﴾ أى وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو ، على تقدير حذف مضاف ، أو : وما الدنيا من حيث هى إلا لعب ولهو . والقصد بالآية تكذيب الكفار فى قولهم : ﴿ **ما هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ واللعب معروف وكذلك اللهو ، وكل ما يشغلك فقد ألهاك . وقيل : أصله الصرف عن الشىء . ورد بأن اللهو بمعنى الصرف لامه « ياء »،

يقال : لهيت عنه ، ولام اللهو واو ، يقال : لهوت بكذا ﴿ **وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا ، أى هى خير للذين يتقون الشرك والمعاصى ، أفلا تعقلون ذلك . قرأ ابن عامر : « ولدار الآخرة » بلام واحدة وبالإضافة ، وقرأ الجمهور باللام التى للتعريف معها ، وجعل الآخرة نعتًا لها ، والخبر « خير » ، وقرئ : ﴿ **تعقلون** ﴾ بالفوقية والتحتية .

قوله : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون** ﴾ هذا الكلام [1] مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغم والحزن ، بتكذيب الكفار له، ودخول قد للتكثير فإنها قد تأتى لإفادته كما تأتى رب . والضمير فى « إنه » للشأن ، وقرئ بفتح الياء من ﴿ **يحزنك** ﴾ وضمها، وقرئ : ﴿ **يكذبونك** ﴾ مشددًا ومخففًا ، واختار أبو عبيدة قراءة التخفيف . قال النحاس : وقد خولف أبو عبيدة فى هذا ، ومعنى ﴿ **يكذبونك** ﴾ على التشديد : ينسبونك إلى الكذب ويردون عليك ما قلته . ومعنى المخفف : أنهم لا يجدونك كذابًا ، يقال : أكذبته : وجدته كذابًا ، وأبخلته : وجدته بخيلا . وحكى الكسائى عن العرب : أكذبت الرجل : أخبرت أنه جاء بالكذب ، وكذبته : أخبرت أنه كاذب . وقال الزجاج : كذبته إذا قلت له : كذبت ، وأكذبته : إذا أردت أن ما أتى به كذب ، والمعنى : أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق ، ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به ، ولهذا قال : ﴿ **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر؛ لزيادة التوبيخ لهم ، والإزراء عليهم ، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذى وقع منهم ظلم بين .

قوله : ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا** ﴾ هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ ، أى أن هذا الذى وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم ، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد بهم ولا تحزن ، واصبر كما صبروا على ماكذبوا به وأوذوا ، حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فإنا لا نخلف الميعاد ، و﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [الرعد : ٣٨] ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ [غافر : ٥١] ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١] ﴿**ولامبدل لكلمات الله** ﴾ بل وعده كائن وأنت منصور على المكذبين ظاهر عليهم ، وقد كان ذلك ولله الحمد ﴿ **ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ ما جاءك من تجرّى قومهم عليهم فى الابتداء ، وتكذيبهم لهم ، ثم نصرهم عليهم فى الانتهاء ، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل فيرجعون إليك ، ويدخلون فى الدين الذى تدعوهم إليه طوعا أو كرها .

---

(١) فى المطبوعة : « اللام » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قوله : ﴿ **وإن كان كبر عليك إعراضهم** ﴾ كان النبى ﷺ يكبر عليه إعراض قومه ويتعاظمه ويحزن له ، فبين له الله سبحانه أن هذا الذى وقع منهم من توليهم عن الإجابة له ، والإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة لما سبق فى علم الله عز وجل ، وليس فى استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك ، ثم علق ذلك بما هو محال فقال : ﴿**فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض** ﴾ فتأتيهم بآية منه ﴿ **أو سلمًا فى السماء فتأتيهم بآية** ﴾ منها فافعل ، ولكنك لا تستطيع ذلك فدع الحزن ، و﴿ لا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : ٨] وما أنت عليهم بمسيطر . والنفق : السرب والمنفذ ، ومنه النافقاء لجحر اليربوع ، ومنه المنافق . وقد تقدم فى البقرة ما يغنى عن الإعادة . والسلم : الدرج الذى يرتقى عليه ، وهو مذكر لا يؤنث . وقال الفراء : إنه يؤنث . قال الزجاج : وهو مشتق من السلامة ؛ لأنه يسلك به إلى موضع الأمن . وقيل : إن الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته ؛ لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم ، ولا يشعرون أن لله سبحانه فى ذلك حكمة لا تبلغها العقول ولا تدركها الأفهام ، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء والامتحان معنى ، ولهذا قال : ﴿ **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** ﴾ جمع إلجاء وقسر ، ولكنه لم يشأ ذلك ولله الحكمة البالغة ﴿ **فلا تكونن من الجاهلين**﴾ فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ولست منهم ، فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة ، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التى لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطرارًا ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ أى إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول ، وتوجبه الأفهام وهؤلاء ليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون ، لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة وفى آذانهم من الوقر ، ولهذا قال : ﴿ **والموتى يبعثهم الله** ﴾ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعًا لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق ، أى أن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادرا على ذلك كما يقدر على بعثه الموتى للحساب ﴿ **ثم إليه يرجعون** ﴾ إلى الجزاء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قالوا يا حسرتنا** ﴾ قال : الحسرة : الندامة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب بسند صحيح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **يا حسرتنا** ﴾ قال : «الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة فتلك الحسرة »[1] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ألا ساء ما يزرون** ﴾ قال : مايعملون .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لعب ولهو** ﴾ قال : كل لعب لهو .

---

(١) ابن جرير ٧/ ١١٣ ، ١١٤ والخطيب فى تاريخه ٣/ ٣٨٩ فى ترجمة محمد بن يعقوب الحربى .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والضياء فى المختارة عن على بن أبى طالب قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾(١). وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى يزيد المدنى أن أبا جهل قال : والله لأعلم أنه صادق ، ولكن متى كنا تبعًا لبنى عبد مناف ؟ وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبى ميسرة نحو رواية على بن أبى طالب. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ قال : يعلمون أنك رسول الله ويجحدون .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولقد كُذبت رسل من قبلك** ﴾ قال : يعزى نبيه ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : ﴿ **فإن استطعت أن تبتغى نفقًا فى الأرض** ﴾ والنفق : السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية ، أو تجعل لهم سلمًا فى السماء فتصعد عليه ﴿ **فتأتيهم بآية** ﴾ أفضل مما أتيناهم به فافعل ﴿ **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** ﴾ يقول سبحانه : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **نفقًا فى الأرض** ﴾ قال : سربًا ﴿ **أو سلما فى السماء** ﴾ قال : يعنى الدرج ، وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ قال : المؤمنون ﴿ **والموتى** ﴾ قال : الكفار . وأخرج هؤلاء عن مجاهد مثله .

﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)** ﴾

هذا كان منهم تعنتًا ومكابرة حيث لم يقتدوا بما قد أنزله الله على رسوله من الآيات البينات التى من جملتها القرآن ، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله . ومرادهم بالآية هنا هى التى تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع ، أو نتق الجبل كما وقع لبنى إسرائيل فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٦٤) وابن جرير ٧/١١٦ لكن عن ناجية بن كعب ، وصححه الحاكم ٢/٣١٥ على شرط الشيخين وقال الذهبى : «قلت : ما خرجا لناجية ــ الراوى عن على ــ شيئا » .

إلى الإيمان ، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذى هو الابتلاء والامتحان ، وأيضًا لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها ؛ بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا . قال الزجاج : طلبوا أن يجمعهم على الهدى يعنى جمع إلجاء ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أن الله قادر على ذلك وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبلغها عقولهم .

قوله : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ الدابة من دب يدبّ فهو داب: إذا مشى مشيًا فيه تقارب خطو . وقد تقدم بيان ذلك فى البقرة ﴿ **ولا طائر** ﴾ معطوف على ﴿ **دابة** ﴾ مجرور فى قراءة الجمهور وقرأ الحسن وعبد الله بن أبى إسحاق: « ولا طائر » بالرفع عطفًا على موضع من دابة على تقدير زيادة من ، و﴿ **بجناحيه** ﴾ لدفع الإيهام ؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير ، كقولهم : طر فى حاجتى ، أى أسرع . وقيل : إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران ، ومع عدم الاعتدال يميل فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين . وقيل : ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينيه . والجناح : أحد ناحيتى الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء ، وأصله: الميل إلى ناحية من النواحى ، والمعنى : ما من دابة من الدواب التى تدبّ فى أى مكان من أمكنة الأرض ، ولا طائر يطير فى أى ناحية من نواحيها ﴿ **إلا أمم أمثالكم** ﴾ أى جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ، ورزقهم كما رزقكم داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شىء . وقيل : أمثالنا فى ذكر الله والدلالة عليه . وقيل : أمثالنا فى كونهم محشورين ، روى ذلك عن أبى هريرة . وقال سفيان ابن عيينة : أى ما من صنف من الدواب والطير إلا فى الناس شبه منه ، فمنهم من يعدو كالأسد ، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوى كالكلب ، ومنهم من يزهو كالطاوس . وقيل : أمثالكم فى أن لها أسماء تعرف بها ، وقال الزجاج : أمثالكم فى الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص . والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان .

قوله : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾ أى ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شىء ، والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث . وقيل : إن المراد به القرآن، أى ما تركنا فى القرآن من شىء من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾ [النحل :٨٩]، وقال : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ [النحل : ٤٤] ومن جملة ما أجمله فى الكتاب العزيز قوله : ﴿ و[1] ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] فأمر فى

(١) فى المخطوطة بدون الواو .

هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ فكل حكم سنه الرسول لأمته قد ذكره الله سبحانه فى كتابه العزيز ، بهذه الآية وبنحو قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ﴾ [آل عمران: ٣١] وبقوله :﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب : ٢١] و« من » فى ﴿ **من شىء** ﴾ مزيدة للاستغراق .

قوله : ﴿ **ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ يعنى الأمم المذكورة ، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء ، ومنهم أبو ذر وأبو هريرة والحسن وغيرهم، وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها ، وبه قال الضحاك . والأول أرجح للآية ، ولما صح فى السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ولقول الله تعالى: ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ [التكوير : ٥] . وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور فى الآية : حشر الكفار ، وما تخلل كلام معترض قالوا : وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص ، واستدلوا أيضا بأن فى هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة . ولفظه :« حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء ، وللحجر لم ركب على الحجر ؟ والعود لم خدش لعود ؟ » قالوا : والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها .

قوله : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم** ﴾ أى لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بألسنتهم، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق ؛ لعدم قبولهم لما ينبغى قوله من الحجج الواضحة، والدلائل الصحيحة . وقال أبو على : يجوز أن يكون صممهم وبكمهم فى الآخرة . قوله : ﴿ **فى الظلمات** ﴾ أى فى ظلمات الكفر والجهل والحيرة لايهتدون لشىء مما فيه صلاحهم. والمعنى : كائنين فى الظلمات التى تمنع من إبصار المبصرات ، وضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار ؛ لتراكم الظلمة عليهم ، فكانت حواسهم كالمسلوبة التى لا ينتفع بها بحال، وقد تقدم فى البقرة تحقيق المقام بما يغنى عن الإعادة ، ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضله أضله ، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم ، لا يذهب به إلى غير الحق ، ولا يمشى فيه إلا إلى صواب الاستقامة.

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ **إلا أمم أمثالكم** ﴾ قال : أصنافا مصنفة تعرف بأسمائها ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : الطير أمة ، والإنس أمة، والجن أمة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى : قال : خلق أشالكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى الأيب قال : الذرة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من

الدواب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾ يعنى ماتركنا شيئًا إلا وقد كتبناه فى أم الكتاب . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿**ثم إلى ربهم يحشرون**﴾ قال : موت البهائم حشرها ، وفى لفظ قال : يعنى بالحشر الموت . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة . ثم يقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن ، ثم يقال لها : كونى ترابًا ، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿ يا ليتنى كنت ترابا﴾ [النبأ: ٤٠] وإن شئتم فاقرؤوا : ﴿ **وما من دابة فى الأرض** ﴾ الآية [١] . وأخرج ابن جرير عن أبى ذر قال : انتطحت شاتان عند النبى ﷺ فقال لى : « يا أبا ذر، أتدرى فيم انتطحتا ؟ » قلت : لا . قال: « لكن الله يدرى وسيقضى بينهما » قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما . وأخرجه أيضا أحمد [٢] ، وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » [٣] .

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)** ﴾

قوله : ﴿ **أرأيتكم** ﴾ الكاف والميم عند البصريين للخطاب ولاحظ لهما فى الإعراب ، وهو اختيار الزجاج . وقال الكسائى والفراء وغيرهما : إن الكاف والميم فى محل نصب بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى: أرأيتم أنفسكم . قال فى الكشاف مرجحاً للمذهب الأول : إنه لا محل للضمير الثانى ، يعنى الكاف من الإعراب ؛ لأنك تقول : أرأيتك زيداً ما شأنه ، فلو

---

(١) ابن جرير ٧/ ١٢٠ وصححه الحاكم ٢/ ٣١٦ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٥/ ١٦٢ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٥٥ : « رجاله رجال الصحيح وفيها راوٍ لم يسم » وابن جرير ٧/ ١٢٠ .

(٣) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٢ / ٦٠) وأحمد ٢/ ٣٠١ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٠) وقال : « حسن صحيح ». كلهم عن أبى هريرة .

جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أرأيت نفسك زيداً ما شأنه ، وهو خلف من القول . انتهى [١] . والمعنى : أخبرونى ﴿ **إن أتاكم عذاب الله** ﴾ كما أتى غيركم من الأمم ﴿ **أو أتتكم الساعة** ﴾ أى القيامة ﴿ **أغير الله تدعون** ﴾ هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ ، أى أتدعون غير الله فى هذه الحالة من الأصنام التى تعبدونها أم تدعون الله سبحانه . . ؟ وقوله : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ ، أى أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنفع وأنها آلهة كما تزعمون .

قوله : ﴿ **بل إياه تدعون** ﴾ معطوف على منفى مقدر ، أو لا تدعون غيره بل إياه تخصون بالدعاء ﴿**فيكشف ما تدعون إليه** ﴾ أى فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك . قوله : ﴿ **وتنسون ما تشركون** ﴾ أى وتنسون عند أن يأتيكم العذاب ما تشركون به تعالى ، أى ما تجعلونه شريكاً له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها ، ولا ترجون كشف ما بكم منها ؛ بل تعرضون عنها إعراض الناس . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وتتركون ما تشركون .

قوله : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك** ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبى ﷺ ، أى ولقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلا فكذبوهم ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضراء** ﴾ أى البؤس والضر . وقيل : البأساء : المصائب فى الأموال ، والضراء : المصائب فى الأبدان ، وبه قال الأكثر ﴿ **لعلهم يتضرعون** ﴾ أى يدعون الله بضراعة ، مأخوذ من الضراعة وهى الذل ، يقال : ضرع فهو ضارع ، ومنه قول الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

قوله : ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا** ﴾ أى فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا ، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء فى كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم ، وغلوهم فى الكفر ، ويجوز أن يكون المعنى : أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب ، وذلك تضرع ضرورى لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه ، والأول أولى كما يدل عليه : ﴿ **ولكن قست قلوبهم** ﴾ أى صلبت وغلظت ﴿ **وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ أى أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصى .

قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أى تركوا ما ذكروا به ، أو أعرضوا عما ذكروا به ؛ لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به ، إذ ليس هو من فعلهم ، وبه قال ابن عباس

(١) الكشاف ٢/ ٢٢ .

وابن جريج وأبو على الفارسى . والمعنى : أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء وأعرضوا عن ذلك ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شىء** ﴾ أى لما نسوا ما ذكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ من الخيرعلى أنواعه فَرِح بطر وأشر، وأعجبوا بذلك ، وظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذى هم عليه حقاً وصوابا ﴿**أخذناهم بغتة** ﴾ أى فجأة وهم غير مترقبين لذلك ، والبغتة : الأخذ على غرة من غير تقدمة آمارة . وهى مصدر فى موضع الحال لا يقاس عليها عند سيبويه . قوله : ﴿ **فإذا هم مبلسون** ﴾ المبلس : الحزن الآيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال ، ومن ذلك اشتق اسم إبليس ، يقال : أبلس الرجل : إذا سكت ، وأبلست الناقة : إذا لم ترع ، قال العجاج :

يا صاحِ هَلْ تَعرِفُ رَسْماً مُكْرَسا (١) قَالَ نعم أَعْرِفُه وأَبْلَسَا

أى تحول لهول ما رأى ، والمعنى : فإذا هم محزونون متحيرون آيسون من الفرح . قوله : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ الدابر : الآخر ، يقال : دبر القوم يدبرهم دبرا : إذا كان آخرهم فى المجىء ، والمعنى : أنه قطع آخرهم ، أى استؤصلوا جميعاً حتى آخرهم . قال قطرب: يعنى أنهم استؤصلوا وأهلكوا . قال أمية بن أبى الصلت :

فَأَهْلِكُوا بِعَذَابٍ حَصَّ دابِرهُم فَما اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفاً ولا انْتَصرُوا

ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور . قوله : ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾ أى على هلاكهم . وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التى من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون ، فإنهم أشد على عباد الله من كل شديد ، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين ، واقطع دابرهم ، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم .

وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضراء** ﴾ قال : خوف السلطان ، وغلاء السعر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ قال : يعنى تركوا ما ذكروا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ قال : مادعاهم الله إليه ورسله أبَوْه وردّوه عليهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شىء** ﴾ قال : رخاء الدنيا ويسرها. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** ﴾ قال : من الرزق ﴿ **أخذناهم**

(١) المكرس : الذى صار فيه الكرس ، والكرس بالكسر : أبوال الإبل وأبعارها ، يتلبد بعضها إلى بعض فى الدار ، وأبلس : سكت غما . اللسان ٦ / ١٩٣ .

بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ قال : مهلكون متغير حالهم . ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ يقول: فقطع أصل الذين ظلموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثى فى قوله : ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ قال : أمهلوا عشرين سنة ، ولا يخفى أن هذا مخالف لمعنى البغتة لغة ، ومحتاج إلى نقل عن الشارع وإلا فهو كلام لا طائل تحته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : المبلس : المجهود المكروب الذى قد نزل به الشر الذى لا يدفعه ، والمبلس أشد من المستكين ، وفى قوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ قال : استؤصلوا .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾

هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم ، ووحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر ولهذا جمعه . والختم : الطبع ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة ، والمراد : أخذ المعانى القائمة بهذه الجوارح ، أو أخذ الجوارح نفسها ، والاستفهام فى : ﴿ مَنْ إله غير الله يأتيكم به ﴾ للتوبيخ ، و« مَن » مبتدأ و ﴿ إله ﴾ خبره و﴿ غير الله ﴾ صفة للخبر ، ووحد الضمير فى « به » مع أن المرجع متعدد على معنى : فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور . وقيل : الضمير راجع إلى أحد هذه المذكورات . وقيل : إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة ، أى يأتيكم بذلك المذكور، ثم أمر رسول الله ﷺ بالنظر فى تصريف الآيات وعدم قبولهم لها تعجباً له من ذلك، والتصريف : المجىء بها على جهات مختلفة ، تارة إنذار ، وتارة إعذار ، وتارة ترغيب ، وتارة ترهيب .

وقوله : ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ عطف على نصرف ، ومعنى يصدون : يعرضون ، يقال : صدف عن الشىء: إذا أعرض عنه صدفاً وصدوفاً .

قوله : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ﴾ أى أخبرونى عن ذلك ، وقد تقدم تفسيرالبغتة قريبا أنها الفجأة . قال الكسائى : بغتهم يبغتهم بغتاً وبغتة : إذا أتاهم فجأة ، أى من دون تقديم مقدمات تدل على العذاب . والجهرة أن يأتى العذاب بعد ظهور مقدمات

تدل عليه . وقيل : البغتة : إتيان العذاب ليلا ، والجهرة : إتيان العذاب نهارا ،كما فى قوله تعالى : ﴿ بياتا أو نهارا﴾ [يونس : ٥٠] ﴿ **هل يهلك إلا القوم الظالمون** ﴾ الاستفهام للتقرير ، أى ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا القوم الظالمون . وقرئ : « يهلك » على البناء للفاعل . قال الزجاج : معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ؟ انتهى .

قوله : ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين** ﴾ كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل ، أى مبشرين لمن أطاعهم بما أعد الله له من الجزاء العظيم ، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الوبيل . وقيل : مبشرين فى الدنيا بسعة الرزق وفى الآخرة بالثواب ، ومنذرين : مخوفين بالعقاب ، وهما حالان مقدرتان ، أى ما نرسلهم إلا مقدرين تبشيرهم وإنذارهم ﴿ **فمن آمن وأصلح** ﴾ أى آمن بما جاءت به الرسل ﴿ **وأصلح** ﴾ حال نفسه بفعل ما يدعون إليه ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ بحال من الأحوال ، هذا حال من آمن وأصلح ، وأما حال المكذبين فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم ، أى خروجهم عن التصديق والطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يصدفون** ﴾ قال: يعدلون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يصدفون** ﴾ قال : يعرضون، وقال فى قوله : ﴿ **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة** ﴾ قال : فجأة آمنين ، ﴿ **أو جهرة** ﴾ ، قال : وهم ينظرون . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كل فسق فى القرآن فمعناه الكذب .

﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)** ﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه وتعنتهم ، بإنزال الآيات التى تضطرهم إلى الإيمان أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات ، والمراد : خزائن قدرته التى تشتمل على كل شىء من الأشياء ، ويقول لهم : إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به ويعرفهم بما سيكون فى مستقبل الدهر . ﴿ **ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ حتى تكلفونى من

الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر . وليس فى هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم ، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية ؛ بل الكلام فى مثل هذا من الاشتغال بما لا يعنى ، و« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) . ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى ما أتبع إلا ما يوحيه اللّه إلىّ . وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملا بما يفيده القصر فى هذه الآية ، والمسألة مدونة فى الأصول والأدلة عليها معروفة ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « أوتيت القرآن ومثله معه » (٢) . ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، والمراد : أنه لا يستوى الضال والمهتدى ، أو المسلم والكافر ، أو من اتبع ما أوحى إليه ومن لم يتبعه . والكلام تمثيل ﴿ **أفلا تتفكرون** ﴾ فى ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما فإنه بين لا يلتبس على من له أدنى عقل وأقل تفكر .

قوله : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ الإنذار : الإعلام . والضمير فى به راجع إلى ﴿ **ما يوحى** ﴾ . وقيل : إلى ﴿ **اللّه** ﴾ وقيل : إلى ﴿ **اليوم الآخر** ﴾ وخص الذين يخافون أن يحشروا ؛ لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف ، خلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به ، وإنكاره له ، فإنه لا يؤثر فيه ذلك . قيل : ومعنى يخافون : يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون . فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين . وقيل : معنى الخوف على حقيقته ، والمعنى : أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبى ﷺ يذكره ، وإن لم يكن مصدقًا به فى الأصل ، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبى ﷺ ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع . قوله: ﴿ **ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع** ﴾ الجملة فى محل نصب على الحال، أى أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولى لهم يواليهم ، ولا نصير يناصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم من دون اللّه ، وفيه ردّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم ، وهم أهل الكتاب ، أو أن أصنامهم تشفع لهم ، وهم المشركون .

قوله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه** ﴾ الدعاء : العبادة مطلقًا . وقيل : المحافظة على صلاة الجماعة . وقيل : الذكر وقراءة القرآن . وقيل : المراد الدعاء للّه بجلب النفع ودفع الضرر. قيل : والمراد بذكر الغداة والعشى : الدوام على ذلك والاستمرار. وقيل : هو على ظاهره ، و ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ فى محل نصب على الحال ،

---

(١) الحديث عن أبى هريرة عند الترمذى فى الزهد (٢٣١٧) وقال : « غريب » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٦) .
(٢) أحمد ٤/ ١٣١ وأبو داود فى السنة (٤٦٠٤) .

والمعنى : أنهم مخلصون فى عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه اللّه تعالى ، أى يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره .

قوله : ﴿ **ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء** ﴾ هذا كلام معترض بين النهى وجوابه متضمن لنفى الحامل على الطرد ، أى حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شيء، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء فعلام تطردهم ؟هذا عن فرض صحة وصف من وصفهم بقوله : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ [هود : ٢٧] وطعن عندك فى دينهم وحسبهم ، فكيف وقد زكاهم اللّه عز وجل بالعبادة والإخلاص ؟! وهذا هو مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] وقوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم : ٣٩] وقوله : ﴿ إن حسابهم إلا على ربى ﴾ [الشعراء : ١١٣] قوله : ﴿ **فتطردهم** ﴾ جواب النفى فى قوله : ﴿ **ما عليك من حسابهم من شيء** ﴾ وهو من تمام الاعتراض ، أى إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم فى الدين والفضل و « من » فى :﴿ **ما عليك من حسابهم من شيء** ﴾ للتبعيض والثانية للتوكيد ، وكذا فى: ﴿ **ما من حسابك عليهم من شيء** ﴾ .

قوله : ﴿ **فتكون من الظالمين** ﴾ جواب للنهى أعنى ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم** ﴾ أى إن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، وحاشاه عن وقوع ذلك ، وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام كقوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر: ٦٥] . وقيل : إن ﴿ **فتكون من الظالمين** ﴾ معطوف على ﴿ **فتطردهم** ﴾ على طريق التسبب ، والأول أولى .

قوله : ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض** ﴾ أى مثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض، والفتنة : الاختبار ، أى عاملناهم معاملة المختبرين ، واللام فى ﴿ **ليقولوا** ﴾ للعاقبة ، أى ليقول البعض الأول مشيرين إلى البعض الثانى ﴿ **أهؤلاء** ﴾ الذين ﴿ **مَنَّ اللّه عليهم من بيننا** ﴾ أى أكرمهم بإصابة الحق دوننا . قال النحاس : وهذا من المشكل ؛ لأنه يقال : كيف فتنوا ليقولوا هذا القول ؟ وهو إن كان على طريقة الإنكار كفر ، وأجاب بجوابين : الأول : أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار ، والثانى : أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبة هذا القول منهم كقوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزَنا ﴾ [القصص : ٨] قوله : ﴿ **أليس اللّه بأعلم بالشاكرين** ﴾ هذا الاستفهام للتقرير. والمعنى :أن مرجع الاستحقاق لنعم اللّه سبحانه هو الشكر، وهو أعلم بالشاكرين له ، فما بالكم تعترضون بالجهل وتنكرون الفضل .

قوله : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا** ﴾ هم الذين نهاه اللّه عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين ، كما سيأتى بيانه ﴿ **فقل سلام عليكم** ﴾ أمره اللّه بأن يقول لهم هذا القول تطييبًا لخواطرهم وإكرامًا لهم . والسلام والسلامة : بمعنى واحد ، فمعنى سلام عليكم : سلمكم اللّه . وقد كان النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام [1] . وقيل : إن هذا السلام هو من جهة اللّه ، أى أبلغهم منا السلام . قوله : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ أى أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان . وقيل : كتب ذلك فى اللوح المحفوظ . قيل : هذا من جملة ما أمره اللّه سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيرًا بسعة مغفرة اللّه وعظيم رحمته .

قوله : ﴿ **أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع بفتح « أن » من ﴿ **أنه** ﴾ وقرأ الباقون بكسرها . فعلى القراءة الأولى : تكون هذه الجملة بدلا من الرحمة ، أى كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره . وعلى القراءة الثانية : تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف ، وموضع بجهالة النصب على الحال ، أى عمله وهو جاهل . قيل : والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين ؛ لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه ، فقد فعل فعل أهل الجهل والسفه لا فعل أهل الحكمة والتدبير . وقيل : المعنى : أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة ، فتكون فائدة التقييد بالجهالة الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدى إلى الضرر .

قوله : ﴿ **ثم تاب من بعده** ﴾ أى من بعد عمله ﴿ **وأصلح** ﴾ ما أفسده بالمعصية ، فراجع الصواب ، وعمل الطاعة ﴿ **فإنه غفور رحيم** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهمزة من ﴿ **فإنه** ﴾ وقرأ الباقون بالكسر ، فعلى القراءة الأولى : تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف ، أى فأمره أن اللّه غفور رحيم ، وهذا اختيار سيبويه ، واختار أبو حاتم أن الجملة فى محل رفع على الابتداء ، والخبر مضمر ، كأنه قيل : فله « أنه غفور رحيم » قال : لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء ، وأما على القراءة الثانية : فالجملة مستأنفة .

قوله : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات** ﴾ أى مثل ذلك التفصيل نفصلها ، والتفصيل : التبيين ، والمعنى : أن اللّه فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين ، وبين لهم حكم كل طائفة . قوله : ﴿ **ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ قال الكوفيون : هو معطوف على مقدر ، أى وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين . قال النحاس : وهذا الحذف لا يحتاج إليه . وقيل : إن دخول الواو للعطف على المعنى . قرئ : ﴿ **لتستبين** ﴾ بالفوقية والتحتية ، فالخطاب على الفوقية : للنبى ﷺ ، أى لتستبين يا محمد سبيل المجرمين ، وسبيل منصوب على قراءة نافع . وأما على

---

(١) قال عكرمة : نزلت فى الذين نهى اللّه تعالى نبيه ﷺ عن طردهم ، فكان إذا رآهم النبى ﷺ بدأهم بالسلام وقال : «الحمد للّه الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام» . انظر : أسباب النزول للواحدى ص ١٢٥ .

قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص بالرفع ، فالفعل مسند إلى سبيل ، وأما على التحتية : فالفعل مسند إلى سبيل أيضا ، وهى قراءة حمزة والكسائى وشعبة بالرفع ، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ قال : الأعمى : الكافر الذى عمى عن حق الله وأمره ونعمه عليه ، والبصير : العبد المؤمن الذى أبصر بصرًا نافعًا فوحد الله وحده وعمل بطاعة ربه ، وانتفع بما أتاه الله . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ﴿ **أهؤلاء من الله عليهم من بيننا** ﴾ أنحن نكون تبعًا لهؤلاء ، اطردهم عنا فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فأنزل الله فيهم القرآن : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ إلى قوله : ﴿**والله عليم بالظالمين** ﴾ (١) .

وقد أخرج هذا السبب مطولا ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة وفيه : إن الذين جاؤوا إلى النبى ﷺ عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدى بن الخيار بن نوفل فى أشراف الكفار من عبد مناف (٢) . وأخرجه ابن أبى شيبة وابن ماجة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى فى الدلائل عن خباب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى ، فذكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطولا (٣) . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكية والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر (٤) .

وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجة وغيرهم عن سعد بن أبى وقاص قال : لقد نزلت هذه الآية فى ستة : أنا وعبد الله ابن مسعود ، وبلال ، ورجل من هذيل ، ورجلان لست أسميهما، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة**

(١) أحمد ١/ ٤٢٠ وابن جرير ٧/ ١٢٧ والطبرانى (١٠٥٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٣ ، ٢٤ : « ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة » .

(٢) ابن جرير ٧/ ١٢٨ .

(٣) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١٢٥٦٤) وابن ماجة فى الزهد (٤١٢٧) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » وابن جرير ٧/ ١٢٧، ١٢٨ والطبرانى (٣٦٩٣) وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة خباب ١/ ١٤٦، ١٤٧ والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٥٢، ٣٥٣ . والحديث فى إسناده من تكلم فيهم الحفاظ .

(٤) ابن كثير ٣/ ٢٦ ، ٢٧ .

والعشى﴾[١] وقد روى فى بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا فى المعنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بالغداة والعشى** ﴾ قال : يعنى الصلاة المكتوبة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : الصلاة المكتوبة الصبح والعصر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم النخعى فى الآية قال : هم أهل الذكر لا تطردهم عن الذكر . قال سفيان : أى أهل الفقه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض** ﴾ يعنى أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء ، فقال الأغنياء للفقراء : ﴿ **أهؤلاء من الله عليهم من بيننا** ﴾ يعنى أهؤلاء هداهم الله ، وإنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج : ﴿ **أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا** ﴾ أى لو كان لهم كرامة على الله ما أصابهم هذا الجهد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ماهان قال : أتى قوم النبى ﷺ ، فقالوا : إنا أصبنا ذنوبًا عظامًا ، فما رد عليهم شيئا فانصرفوا ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا** ﴾ الآية فدعاهم فقرأها عليهم [٢] . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أخبرت أن قوله : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ كانوا إذا دخلوا على النبى ﷺ بدأهم بالسلام ، فقال : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ وإذا لقيهم فكذلك أيضًا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات** ﴾ قال : نبين الآيات . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ قال : الذين يأمرونك بطرد هؤلاء .

﴿ **قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)** ﴾

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤١٣/ ٤٥ ، ٤٦) والنسائى فى التفسير (١٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤١٢٨) وابن جرير ١٢٨/٧ وأبو يعلى (٨٢٦) وصححه الحاكم ٣/ ٣١٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى إلا أنه قال : « نزلت فى خمس » وليس فى « ستة » ، والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٥٣ .

(٢) ابن جرير ٧ / ١٣٢ .

قوله : ﴿ **قل إنى نهيت** ﴾ أمره اللّه سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ، ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعونه ويعبدونه من دون اللّه ، أى نهاه اللّه عن ذلك ، وصرفه وزجره، ثم آمره سبحانه بأن يقول لهم :﴿ **لا أتبع أهواءكم** ﴾ أى لا أسلك المسلك الذى سلكتموه فى دينكم من اتباع الأهواء ، والمشى على ما توجبه المقاصد الفاسدة التى يتسبب عنها الوقوع فى الضلال . قوله : ﴿ **قد ضللت إذا** ﴾ أى إن اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم وطرد من آردتم طرده ﴿ **وما أنا من المهتدين** ﴾ إن فعلت ذلك ، وهذه الجملة الاسمية معطوفة على الجملة التى قبلها والمجىء بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات ، وقرئ: « ضللت » بفتح اللام وكسرها وهما لغتان . قال أبو عمرو : ضللت بكسر اللام لغة تميم ، وهى قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف ، والأولى هى الأصح والأفصح ؛ لأنها لغة أهل الحجاز ، وهى قراءة الجمهور . قال الجوهرى : والضلال والضلالة ضد الرشاد ، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ ، قال اللّه تعالى : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ﴾ [سبأ : ٥٠] قال : فهذه ، يعنى : المفتوحة ، لغة نجد وهى الفصيحة ، وأهل العالية يقول : « ضَلِلْتُ » بالكسر أَضَلّ . انتهى (١) .

قوله : ﴿ **قل إنى على بينة من ربى** ﴾ البينة : الحجة والبرهان ، أى إنى على برهان من ربى ويقين ، لا على هوى وشك ، أمره اللّه سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية ، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التى لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة .قوله : ﴿ **وكذبتم به** ﴾ أى بالرب أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبينة ، والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد ، أى والحال أن قد كذبتم به ، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول اللّه ﷺ من الحجج الواضحة والبراهين البينة .

قوله : ﴿ **ما عندى ما تستعجلون به** ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب ، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء ، نحو قوله :﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ [الإسراء : ٩٢] وقولهم : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾[الأنفال : ٣٢] وقولهم: ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [الأنبياء: ٣٨] . وقيل : ﴿ **ما عندى ما تستعجلون به** ﴾ من الآيات التى تقترحونها علىّ .

قوله : ﴿ **إن الحكم إلا للّه** ﴾ أى ما الحكم فى كل شىء إلا للّه سبحانه ، ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب ، أو الآيات المقترحة . والمراد : الحكم الفاصل بين الحق والباطل.

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٤٣٥.

قوله : ﴿ **يقص الحق** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم :﴿ **يقص** ﴾ بالقاف والصاد المهملة، وقرأ الباقون :« يقضى » بالضاد المعجمة والياء ، وكذا قرأ على وأبو عبد الرحمن السلمى وسعيد بن المسيب ، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء . فعلى القراءة الأولى : هو من القصص ، أى يقص القصص الحق ، أو من قص أثره ، أى يتبع الحق فيما يحكم به . وعلى القراءة الثانية : هو من القضاء ، أى يقضى القضاء بين عباده ، و﴿ **الحق** ﴾ منتصب على المفعولية ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى يقضى القضاء الحق ، أو يقص القصص الحق ﴿ **وهو خير الفاصلين** ﴾ أى بين الحق والباطل بما يقضى به بين عباده ويفصله لهم فى كتابه. ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم : ﴿ **لو أن عندى ما تستعجلون به** ﴾ أى ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدوراً إلىّ وفى وسعى ﴿ **لقضى الأمر بينى وبينكم** ﴾ أى لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤالى له وطلبى ذلك ، أو المعنى : لو كان العذاب الذى تطلبونه وتستعجلون به عندى وفى قبضتى لأنزلته بكم ، وعند ذلك يقضى الأمر بينى وبينكم ﴿ **والله أعلم بالظالمين** ﴾ وبالوقت الذى ينزل فيه عذابهم وبما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجًا لهم وإعذارا إليهم .

قوله : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ المفاتح جمع مفتح بالفتح وهو المخزن ، أى عنده مخازن الغيب ، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة ، أو جمع مِفتح بكسر الميم ، وهو مفتاح ، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما فى المخازن منها على طريق الاستعارة أيضا ، ويؤيد أنها لجمع مِفتح بالكسر قراءة ابن السَّمَيْقَع ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ فإن المفاتيح جمع مفتاح والمعنى : إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتيح التى يتوصل بها . وقوله : ﴿ **لا يعلمها إلا هو** ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى ، وأنه لا علم لأحد من خلقه بشىء من الأمور الغيبية التى استأثر الله بعلمها ، ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجًا أوليا ، وفى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان، والمنجمين ، والرملليين، وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم ، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق ﷺ :« من أتى كاهنًا أو منجمًا فقد كفر بما أنزل على محمد» (١) .

قوله : ﴿ **ويعلم ما فى البر والبحر** ﴾ خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ، أى يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علمًا مفصلا لا يخفى عليه منه شىء ، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ أى من ورق

(١) أحمد ٢/ ٤٢٩ عن أبى هريرة والحسن .

الشجر، وهو تخصيص بعد التعميم ، أى يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه . وقيل : المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق . وحكى النقاش عن جعفر بن محمد :أن الورقة يراد بها هنا : السقط من أولاد بنى آدم ، قال ابن عطية : وهذا قول جار على طريقة الرموز ، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغى أن يلتفت إليه ﴿ **ولا حبة** ﴾ كائنة ﴿ **فى ظلمات الأرض** ﴾ أى فى الأمكنة المظلمة . وقيل : فى بطن الأرض ﴿ **ولا رطب ولا يابس** ﴾ بالخفض عطفًا على حبة، وهى معطوفة على ورقة. وقرأ ابن السميقع والحسن وغيرهما بالرفع عطفًا على موضع ﴿ **من ورقة** ﴾ وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات . قوله : ﴿ **إلا فى كتاب مبين** ﴾ هو اللوح المحفوظ فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من ﴿ **إلا يعلمها** ﴾ . وقيل : هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله : ﴿ **قل إنى على بينة من ربى** ﴾ قال : على ثقة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **لقضى الأمر بينى وبينكم** ﴾ قال : لقامت الساعة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ قال : يقول: خزائن الغيب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وعنده مفاتح الغيب** ﴾ قال: هنّ خمس: ﴿**إن اللّه عنده علم الساعة** ﴾ إلى قوله: ﴿ عليم خبير ﴾ [لقمان: ٣٤]. وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه : لا يعلم ما فى غد إلا اللّه ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللّه ، ولا يعلم متى يأتى المطر إلا اللّه، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا اللّه ، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا اللّه » (١) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ قال : ما من شجرة فى بر ولا بحر إلا وبها ملك يكتب ما يسقط من ورقها . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد نحوه .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن جحادة فى قوله : ﴿ **وما تسقط من ورقة** ﴾ قال : للّه تبارك وتعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده ، فذلك قوله : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ . وأخرج الخطيب فى تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من زرع على الأرض ، ولا ثمار على أشجار ، إلا عليها مكتوب بسم اللّه الرحمن الرحيم ، هذا رزق فلان ابن فلان » فذلك قوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ﴾ الآية (٢) . وقد رواه يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ فذكره . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية:

---

(١) أحمد ٢/ ٥٢ ، ٥٨ والبخارى فى التفسير (٤٦٩٧) وابن حبان فى العلم (٧٠ ، ٧١) .

(٢) الخطيب فى تاريخه ، ترجمة : أحمد بن الخليل أبو على التاجر ٤/ ١٣٠ .

﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ فقال : الرطب واليابس من كل شيء .

﴿ وهُوَ الَّذي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾

قوله : ﴿ يتوفاكم بالليل ﴾ أى ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التى بها تميزون وليس ذلك موتًا حقيقة ، فهو مثل قوله : ﴿ اللّه يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ [الزمر : ٤٢] والتوفى : استيفاء الشيء ، وتوفيت الشيء واستوفيته : إذا أخذته أجمع ، قال الشاعر (١) :

إنَ بنِى الأدْرَدِ لَيْسُوا مِنْ أحدٍ ولا توفاهم قريشٌ فى العَدَدْ

قيل : الروح إذا خرجت من البدن فى المنام بقيت فيه الحياة . قيل : ولا تخرج منه الروح بل الذهن فقط ، والأولى أن هذا لا يعرفه إلا اللّه سبحانه . قوله : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أى كسبتم بجوارحكم من الخير والشر . قوله : ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أى فى النهار يعنى اليقظة . وقيل : يبعثكم من القبور فيه ، أى فى شأن ذلك الذى قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : هو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه . وقيل : ثم يبعثكم فيه ، أى فى المنام، ومعنى الآية : أن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم ، فإنه عالم بذلك ولكن ﴿ ليقضى أجل مسمى ﴾ أى معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ أى رجوعكم بعد الموت ﴿ ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته .

قوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ المراد : فوقية القدرة والرتبة كما يقال : السلطان فوق الرعية، وقد تقدم بيانه فى أول السورة . قوله : ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ أى ملائكة جعلهم اللّه حافظين لكم ، ومنه قوله :﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠] بمعنى أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات ويحفظ أعمالكم ، والحفظة :جمع حافظ ، مثل كتبة جمع كاتب ﴿ وعليكم ﴾ متعلق بـ﴿ يرسل ﴾ لما فيه من معنى الاستيلاء ، وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه ، وأنه أمر حقيق بذلك . وقيل : هو متعلق بحفظة .

---

(١) الشاعر هو : منظور الوبرى .

قوله : ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا** ﴾ « حتى » يحتمل أن تكون هى الغائية، أى ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت** ﴾ ويحتمل أن تكون الابتدائية . والمراد : بمجيء الموت مجيء علاماته. وقرأ حمزة : « توفاه رسلنا» وقرأ الأعمش : « تتوفاه » والرسل : هم أعوان ملك الموت ، ومعنى توفته: استوفت روحه ﴿ **لا يفرطون** ﴾ أى لايقصرون ولايضيعون [1] ، وأصله : من التقدم ، وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمير : « لا يفرطون » بالتخفيف ، أى لا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الإكرام والإهانة .

قوله : ﴿ **ثم ردوا إلى اللّه مولاهم الحق** ﴾ معطوف على توفته ، والضمير راجع إلى أحد لأنه فى معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، أى ردوا بعد الحشر إلى اللّه ، أى إلى حكمه وجزائه ﴿ **مولاهم** ﴾ مالكهم الذى يلى أمورهم ﴿ **الحق** ﴾ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم اللّه. وقرأ الحسن : « الحق » بالنصب على إضمار فعل ، أى أعنى أو أمدح ، أوعلى المصدر ﴿ **وهو أسرع الحاسبين** ﴾ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبر .

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ :« مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه ، فإذا أذن اللّه فى قبض روحه قبضه وإلا ردّها إليه فذلك قوله تعالى : ﴿ **يتوفاكم بالليل** ﴾ » . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : ما من ليلة إلا واللّه يقبض الأرواح كلها فيسأل كل نفس عما عمل صاحبها من النهار ، ثم يدعو ملك الموت فيقول : اقبض روح هذا وما من يوم إلا وملك الموت ينظر فى كتاب حياة الإنسان ، قائل يقول ثلاثًا وقائل يقول خمسًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : أما وفاته إياهم بالليل فمنامهم، وأما ﴿ **جرحتم بالنهار** ﴾ فيقول :ما اكتسبتم بالنهار ﴿ **ثم يبعثكم فيه** ﴾ قال : فى النهار ﴿**ليقضى أجل مسمى** ﴾ وهو الموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبو حاتم عن ابن عباس ﴿**ويعلم ما جرحتم** ﴾ قال : ما كسبتم من الإثم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **ويرسل عليكم حفظة** ﴾ قال : هم المعقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عمله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال :أعوان ملك الموت من الملائكة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: ﴿ **وهم لا يفرطون** ﴾ يقول : لا يضيعون .

---

(١) فى المخطوطة: «يضيعون» بدون «لا»، والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾

قيل : المراد بظلمات البر والبحر : شدائدهما . قال النحاس : والعرب تقول : يوم مظلم إذا كان شديدًا ، فإذا عظمت ذلك قالت : يوم ذو كواكب ، أى يحتاجون فيه لشدة ظلمته إلى كواكب . وأنشد سيبويه :

بَنى أسدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بلاَءنا إذَا كَانَ يَومٌ ذو كواكب أشْنَعَا (١)

والاستفهام للتقريع والتوبيخ، أى من ينجيكم من شدائدهما العظيمة ؟ قرأ أبو بكر عن عاصم : « خفية » بكسر الخاء . وقرأ الباقون بضمها ، وهما لغتان . وقرأ الأعمش « وخيفة » من الخوف . وجملة ﴿ **تدعونه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرع وخفية ، أو متضرعين ومخفين . والمراد بالتضرع هنا : دعاء الجهر . قوله : ﴿ **لئن أنجيتنا** ﴾ كذا قرأ أهل المدينة ، وأهل الشام ، وقرأ الكوفيون : « لئن أنجانا » والجملة فى محل نصب على تقدير القول ، أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدة التى نزلت بنا ، وهى الظلمات المذكورة ﴿ **لنكونن من الشاكرين** ﴾ لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد .

قوله : ﴿ **قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب** ﴾ قرأ الكوفيون وهشام : « يُنَجِّيكُمْ » بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، وقراءة التشديد تفيد التكثير . وقيل : معناهما واحد ، والضمير فى : ﴿ **منها** ﴾ راجع إلى الظلمات . والكرب : الغم يأخذ بالنفس ، ومنه رجل مكروب . قال عنترة :

وَمَكروب كَشَفْتُ الكَرْبَ عَنْهُ بطعنة فَيْصَلٍ لَما دَعَانى

﴿ **ثم أنتم تشركون** ﴾ بالله سبحانه بعد أن أحسن إليكم (٢) بالخلوص من الشدائد ، وذهاب الكروب شركاء لا ينفعونكم ولا يضرونكم ، ولا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم ، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم : ﴿ **هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا** ﴾ أى الذى قدر على إنجائكم من تلك الشدائد ، ودفع عنكم تلك الكروب ، قادر على أن يعيدكم فى شدة ومحنة وكرب ،

(١) الشناعة : النظاعة .

(٢) فى المطبوعة : « بعد أن أحسن إليك » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

يبعث عذابه عليكم من كل جانب ، فالعذاب المبعوث من جهة الفوق : ما ينزل من السماء من المطر والصواعق ، والمبعوث من تحت الأرجل : الخسف والزلازل والغرق . وقيل: ﴿**من فوقكم**﴾ يعنى الأمراء الظلمة ﴿ **ومن تحت أرجلكم** ﴾ يعنى السفلة ، وعبيد السوء .

قوله : ﴿ **أو يلبسكم شيعًا** ﴾ قرأ الجمهور بفتح التحتية ، من لبس الأمر : إذا خلطه . وقرأ أبو عبد اللّه المدينى بضمها ، أى يجعل ذلك لباسًا لكم . قيل : والأصل : أو يلبس عليكم أمركم ، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجر كما فى قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ [المطففين : ٣] . والمعنى: يجعلكم مختلطى الأهواء، مختلفى النحل، متفرقى الآراء. وقيل: يجعلكم فرقًا يقاتل بعضكم بعضا. والشيع : الفرق ، أى يخلطكم فرقا. قوله : ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ أى يصيب بعضكم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب ﴿ **ويذيق** ﴾ معطوف على ﴿ **يبعث** ﴾ ، وقرئ : « نذيق » بالنون ﴿ **انظر كيف نصرف الآيات**﴾ نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة ﴿ **لعلهم يفقهون** ﴾ الحقيقة فيعودون إلى الحق الذى بيناه لهم بيانات متنوعة .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر** ﴾ يقول : من كرب البر والبحر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسير الآية عن ابن عباس قال : يقول : إذا أضل الرجل الطريق دعا اللّه لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم** ﴾ قال : يعنى من أمرائكم ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ يعنى سفلتكم ﴿ **أو يلبسكم شيعًا** ﴾ يعنى بالشيع : الأهواء المختلفة ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ قال : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه من وجه آخر فى تفسير الآية قال : ﴿ **عذابًا من فوقكم** ﴾ أئمة السوء ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال: خدم السوء . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضًا من وجه آخر قال : ﴿ **من فوقكم** ﴾ من قبل أمرائكم وأشرافكم ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال :من قبل سفلتكم وعبيدكم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى مالك ﴿ **عذابا من فوقكم** ﴾ قال : القذف ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : الخسف . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أيضًا ﴿ **من فوقكم** ﴾ قال : الصيحة والحجارة والريح ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : الرجفة والخسف ، وهما عذاب أهل التكذيب ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ قال :عذاب أهل الإقرار. وأخرج البخارى وغيره عن جابر بن عبد اللّه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم** ﴾ قال رسول اللّه ﷺ :« أعوذ بوجهك » ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ **أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ قال : « هذا أهون

وأيسر » (١) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة وغيرهم من حديث طويل عن ثوبان ، وفيه : « وسألته : ألا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها » (٢) . وأخرج مسلم وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص ، أن النبى ﷺ أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا فقال : « سألت ربى ثلاثًا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة : سألته ألا يهلك أمتى بالغرق ، وسألته ألا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيهما ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » (٣) . وأخرج أحمد والحاكم وصححه من حديث جابر بن عتيك نحوه (٤) . وأخرج نحوه أيضا ابن مردويه من حديث أبى هريرة . وأخرج أيضا ابن أبى شيبة وابن مردويه من حديث حذيفة بن اليمان نحوه (٥) . وأخرج أحمد والنسائى وابن مردويه عن أنس نحوه أيضا (٦) .

وأخرج أحمد، والترمذى وحسنه، وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ فى هذه الآية : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم** ﴾ فقال النبى ﷺ : « أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد» (٧) . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، وأبو نعيم فى الحلية ، والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب فى هذه الآية قال : هن أربع وكلهن عذاب وكلهن واقع لا محالة ، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ، فألبسوا شيعًا، وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة : الخسف والرجم (٨). والأحاديث فى هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية (٩) .

---

(١) أحمد ٣/٣٠٩ والبخارى فى التفسير (٤٦٢٨) وفى الاعتصام (٧٣١٣) وفى التوحيد (٧٤٠٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٥) وقال : « حسن صحيح » وابن حبان فى فضل الأمة (٧١٧٦) والنسائى فى التفسير (١٨٤ ، ١٨٥) .

(٢) أحمد ٥ / ٢٧٨ ، ٢٨٤ ومسلم فى الفتن (٢٨٨٩ / ١٩) وأبو داود فى الفتن (٤٢٥٢) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٢) والبيهقى فى السير ٩ / ١٨١ .

(٣) أحمد ١ / ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ومسلم فى الفتن (٢٨٩٠ / ٢٠) .

(٤) أحمد ٥ / ٤٤٥ وصححه الحاكم ٤ / ٥١٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٥) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٥٥٥) . (٦) أحمد ٣ / ١٤٦ . .

(٧) أحمد ١ / ١٧٠ ، ١٧١ والترمذى فى التفسير (٣٠٦٦) وقال : « حسن غريب » .

(٨) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٤٤٩) وأحمد ٥ / ١٣٤ ، ١٣٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٢٤ : «ورجاله ثقات » ثم قال : « والظاهر أن من قوله : «فمضت اثنتان » إلى آخره من قول « رفيع » فإن أبى بن كعب لم يتأخر إلى زمن الفتنة والله أعلم ، وابن جرير ٧ / ١٤٦ ، ١٤٧ وأبو نعيم فى الحلية ترجمة أبى بن كعب ١ / ٢٥٣ .

(٩) الأحاديث التى ذكرها المؤلف والتى لم يذكرها لا يحال أن يكون تفرق الأمة بعضها على بعض أمرًا لازمًا ، ودائمًا وعامًا، يشمل كل الأزمنة، وكل الأمكنة، وكل الأحوال إلى يوم القيامة . وإلا لم يكن هناك معنى =

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) قُلْ أَندْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾

قوله : ﴿ **وكذب به قومك** ﴾ الضمير راجع إلى القرآن ، أو إلى العذاب ، وقومه المكذبون: هم قريش . وقيل : كل معاند ، وجملة : ﴿ **وهو الحق** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى كذبوا بالقرآن ، أو العذاب ، والحال أنه حق ، وقرأ ابن أبى عبلة : « وكذبت » بالتاء ﴿ **قل لست عليكم بوكيل** ﴾ أى لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها . وقيل : وهذه الآية منسوخة بآية القتال . وقيل : ليست بمنسوخة إذ لم يكن إيمانهم فى وسعه .

قوله : ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ أى لكل شىء وقت يقع فيه . والنبأ : الشىء الذى ينبأ عنه . وقيل: المعنى : لكل عمل جزاء . قال الزجاج : يجوز أن يكون وعيدًا لهم بما ينزل بهم فى الدنيا . وقال الحسن : هذا وعيد من اللّه للكفار؛ لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث ﴿ **وسوف تعلمون** ﴾ ذلك بحصوله ونزوله بهم ، كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبى ﷺ يتوعدهم به .

= لقوله تعالى :﴿ **واعتصموا بحبل اللّه جميعًا ولا تفرقوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣]، ولا لقوله سبحانه: ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

فالتفرق داء وبيل تصاب به الأمة كلما تهيأت أسبابه ، ولم تتحصن منه بما ينبغى ، كما يصاب الفرد بالمرض إذا أهمل الوقاية ، أو قصر فى العلاج . للتوسع انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم للدكتور القرضاوى ص ٤٣ ـ ٤٩ .

قوله : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم** ﴾ الخطاب للنبى ﷺ ، أو لكل من يصلح له. والخوض : أصله فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء التى هى مجاهل تشبيهًا بغمرات الماء ، فاستعير من المحسوس للمعقول . وقيل :هو مأخوذ من الخلط ، وكل شىء خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل : خلطه . والمعنى : إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء ، فدعهم ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم ، حتى يخوضوا فى حديث مغاير له ، أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التى يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هى الخوض فى غير ذلك .

وفى هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة ، الذين يحرفون كلام الله ، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة ، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم ، وذلك يسير عليه غير عسير . وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة ، فيكون فى حضوره مفسدة زائدة ، على مجرد سماع المنكر . وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة مالا يأتى عليه الحصر ، وقمنا فى نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه ، وبلغت إليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما فى مجالسة من يعصى الله بفعل شىء من المحرمات ، ولا سيما بمن كان غير راسخ القدم فى علم الكتاب والسنة ، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ، ما هو من البطلان بأوضح مكان فينقدح فى قلبه ما يصعب علاجه، ويعسر دفعه ، فيعمل بذلك مدة عمره ، ويلقى الله به معتقدًا أنه من الحق ، وهو من أبطل الباطل ، وأنكر المنكر .

قوله : ﴿ **وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى** ﴾ « إما » هذه هى الشرطية وتلزمها غالبًا نون التأكيد ولا تلزمها نادرًا ، ومنه قول الشاعر :

إمَا يصيبك عدو فى منازلة يَوْمًا فقل كيف يَستعلى وَيَنْتَصِرُ

وقرأ ابن عباس : « ينسينك » بتشديد السين ، ومثله قول الشاعر :

وقد ينسيك بعض الحاجة الكسل

والمعنى : إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت ﴿ **مع القوم الظالمين** ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها . قيل : وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبى ﷺ ؛ فالمراد التعريض لأمته لتنزهه عن أن ينسيه الشيطان . وقيل : لا وجه لهذا ، فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة : « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى » [(١)] ، ونحو ذلك .

---

(١) جزء من حديث رواه عبد الله بن مسعود وهو عند : أحمد ١/ ٣٧٩، ٤٢٤ ، ٤٢٨ وأبو داود فى الصلاة (١٠٢٢) والنسائى فى السهو ٣ / ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٠٣) .

قوله : ﴿ **وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء** ﴾ أى ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم فى آيات اللّه من حساب الكفار من شيء . وقيل : المعنى : **ما على الذين** يتقون ما يقع منهم من الخوض فى آيات اللّه فى مجالستهم لهم من شيء ، وعلى هذا التفسير ففى الآية الترخيص للمتقين من المؤمنين فى مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى ذلك كما سيأتى عند ذكر السبب . قيل : وهذا الترخيص كان فى أول الإسلام ، وكان الوقت وقت تقية ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات اللّه يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ [النساء : ١٤٠]. فنسخ ذلك قوله : ﴿ **ولكن ذكرى لعلهم** ﴾ : « ذكرى » فى موضع نصب على المصدر ، أو رفع على أنها مبتدأ ، وخبرها محذوف، أى ولكن عليهم ذكرى . وقال الكسائى :المعنى : ولكن هذه ذكرى ، والمعنى على الاستدراك من النفى السابق : أى ولكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز ، أما على التفسير الأول : فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون فى آيات اللّه لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأما على التفسير الثانى : فالترخيص فى المجالسة لا يسقط التذكير ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ الخوض فى آيات اللّه إذا وقعت منكم الذكرى لهم، وأما جعل الضمير للمتقين فبعيد جدًا .

قوله : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا** ﴾ أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذى كان يجب عليهم العمل به والدخول فيه لعبًا ولهوًا ، ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت وإن كنت مأمورًا بإبلاغهم الحجة . وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال . وقيل : المعنى : أنهم اتخذوا دينهم الذى هم عليه لعبًا ولهوًا ، كما فى فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات والضلالات المتقدم ذكرها .

وقيل : المراد بالدين هنا : العيد ، أى اتخذوا عيدهم لعبًا ولهوًا ، وجملة: ﴿ **وغرتهم الحياة الدنيا** ﴾ معطوفة على : ﴿ **اتخذوا** ﴾ أى غرتهم حتى آثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا : ﴿ إن هى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [المؤمنون : ٣٧] .

قوله : ﴿ **وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت** ﴾ الضمير فى « به » للقرآن ، أو للحساب . والإبسال : تسليم المرء نفسه للهلاك ، ومنه أبسلت ولدى ، أى رهنته فى الدم ؛ لأن عاقبة ذلك الهلاك . قال النابغة :

ونحن رَهَنَّا بالأُفاقة [١] عامرًا   بما كان فى الدرداء رَهْنًا فَأَبْسلاَ

أى فهلك ، والدرداء كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم ، فالمعنى : وذكر به خشية أو

(١) الأُفاقة : ككناسة : موضع فى أرض الحزن قرب الكوفة ، وفى المطبوعة محرفة حيث قال : «الإفاقة» بكسر الهمزة . والصحيح الضم وهو ما أثبتناه .

مخافة أو كراهة أن تهلك نفس بما كسبت، أى ترتهن وتسلم للهلكة ، وأصل الإبسال : المنع ، ومنه شجاع باسل ، أى ممتنع من قرنه.

قوله : ﴿ **وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها** ﴾ العدل : هنا الفدية ، والمعنى : وإن بذلت تلك النفس التى سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك ، وفاعل ﴿ **يؤخذ** ﴾ ضمير يرجع إلى العدل ، لأنه بمعنى المفدى به كما فى قوله : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ [البقرة : ٤٨] . وقيل : فاعله ﴿ **منها** ﴾ لأن العدل هنا مصدر لا يسند إليه الفعل . وكل عدل منصوب على المصدر ، أى عدلا كل عدل ، والإشارة بقوله : ﴿**أولئك** ﴾ إلى المتخذين دينهم لعبًا ولهوًا ، وخبره ﴿ **الذين أبسلوا بما كسبوا** ﴾ أى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا هم الذين سلموا للهلاك بما كسبوا ، و ﴿ **لهم شراب من حميم** ﴾ جواب سؤال مقدر كأنه قيل : كيف حال هؤلاء ؟ فقيل : لهم شراب من حميم ، وهو الماء الحار ، ومثله قوله تعالى : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ [الحج : ١٩] وهو هنا : شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم .

قوله : ﴿ **قل أندعو من دون اللّه ما لا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ ، أى كيف ندعوا من دون اللّه أصنامًا لاتنفعنا بوجه من وجوه النفع إن أردنا منها نفعًا ، ولا نخشى ضرها بوجه من الوجوه ، ومن كان هكذا فلايستحق العبادة ﴿ **ونردّ على أعقابنا** ﴾ عطف على﴿ **ندعو** ﴾ والأعقاب :جمع عقب ، أى كيف ندعو من كان كذلك ونرجع إلى الضلالة التى أخرجنا اللّه منها . قال أبو عبيدة : يقال لمن ردّ عن حاجته ولم يظفر بها : قد ردّ على عقبيه . وقال المبرد :

نعقب بالشر بعد الخير

وأصله من المعاقبة والعقبى ، وهما ما كان تاليًا للشىء واجبًا أن يتبعه ، ومنه : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، ومنه : عقب الرجل ، ومنه العقوبة ؛ لأنها تالية للذنب .

قوله : ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض** ﴾ هوى يهوى إلى الشىء أسرع إليه ، وقال الزجاج : هو من هوى النفس ، أى زين له الشيطان هواه ، و ﴿ **استهوته الشياطين** ﴾ هوت به والكاف فى : ﴿ **كالذى** ﴾ إما نعت مصدر محذوف ، أى نرد على أعقابنا ردًّا كالذى ، أو محل نصب على الحال من فاعل نرد ، أى نرد حال كوننا مشبهين للذى استهوته الشياطين ، أى ذهبت به مردة الجن بعد أن كان بين الإنس . قرأ الجمهور : ﴿ **استهوته** ﴾ وقرأ حمزة: « استهواه » على تذكير الجمع . وقرأ ابن مسعود والحسن : « استهواه الشيطان » وهو كذلك فى قراءة أبى ، و﴿ **حيران** ﴾ حال ، أى حال كونه متحيرًا تائهًا لا يدرى كيف يصنع ؟ والحيران : هو الذى لا يهتدى لجهة ، وقد حار يَحار حَيْرَة وحَيْرورة : إذا تردد ، وبه

سُمي الماء المستنقع الذى لا منفذ له حائراً .

قوله : ﴿ **له أصحاب يدعونه إلى الهدى** ﴾ صفة لحيران ، أو حالية ، أى له رفقة يدعونه إلى الهدى يقولون له : ائتنا فلا يجيبهم ولا يهتدى بهديهم . قوله : ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم : ﴿ **إن هدى اللّه** ﴾ أى دينه الذى ارتضاه لعباده ﴿ **هو الهدى** ﴾ وما عداه باطل ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ [آل عمران : ٨٥] ﴿ **وأمرنا** ﴾ معطوف على الجملة الاسمية، أى من جملة ما أمره اللّه بأن يقوله ، واللام فى : ﴿**لنسلم** ﴾ هى لام العلة ، والمعلل هو الأمر ، أى أمرنا لأجل نسلم لرب العالمين . وقال الفراء: المعنى : أمرنا بأن نسلم ؛ لأن العرب تقول أمرتك لتذهب ، وبأن تذهب بمعنى . وقال النحاس: سمعت ابن كيسان يقول : هى لام الخفض .

قوله : ﴿ **وأن أقيموا الصلاة واتقوه** ﴾ معطوف على : ﴿ **لنسلم** ﴾ على معنى وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا ، ويجوز أن يكون عطفًا على : ﴿ **يدعونه** ﴾ على المعنى ، أى يدعونه إلى الهدى ، ويدعونه أن أقيموا ﴿ **وهو الذى إليه تحشرون** ﴾ فكيف تخالفون أمره ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض** ﴾ خلقًا ﴿ **بالحق** ﴾ أوحال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة؟ قوله: ﴿ **ويوم يقول كن فيكون قوله الحق** ﴾ أى واذكر يوم يقول « كن فيكون» أو اتقوا يوم يقول : كن فيكون وقيل : هو عطف على الهاء فى : ﴿ **واتقوه** ﴾ . وقيل : إن ﴿ **يوم** ﴾ ظرف لمضمون جملة ﴿ **قوله الحق** ﴾ والمعنى : وأمره المتعلق بالأشياء الحق ، أى المشهود له بأنه حق . وقيل :﴿ **قوله** ﴾ مبتدأ « واتقوه » و ﴿ **الحق** ﴾ صفة له و﴿ **يوم يقول كن فيكون** ﴾ خبره مقدمًا عليه، والمعنى : قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول كن فيكون . وقيل : إن ﴿ **قوله** ﴾ مرتفع بـ « يكون » ، و﴿ **الحق** ﴾ صفته ، أى يوم يقول كن يكون قوله الحق . وقرأ ابن عامر : « فنكون » بالنون وهو إشارة إلى سرعة الحساب . وقرأ الباقون بالياء التحتية وهو الصواب .

قوله : ﴿ **وله الملك يوم ينفخ فى الصور** ﴾ الظرف منصوب بما قبله ، أى له الملك فى هذا اليوم . وقيل : هو بدل من اليوم الأول ، والصور : قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، والثانية للإنشاء ، وكذا قال الجوهرى : إن الصور القرن ، قال الراجز :

لَقَدْ نَطَحْنَاهُمْ غَداة الْجَمْعَيْن نَطْحًا شَدِيدًا لا كَنَطْحِ الصُّورَيْن

والصور بفتح الصاد وبكسرها لغة، وحكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ : « يوم ينفخ فى الصُّوَر» بتحريك الواو ، جمع صورة ، والمراد : الخلق . قال أبو عبيدة : وهذا وإن كان محتملا يرد بما فى الكتاب والسنة . وقال الفراء : كن فيكون ، يقال : إنه للصور خاصة ، أى ويوم يقول للصور كن فيكون . قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ رفع ﴿ **عالم** ﴾ على أنه صفة للذى خلق السموات والأرض ، ويجوز أن يرتفع على إضمار مبتدأ ، أى هو عالم الغيب

والشهادة ، وروى عن بعضهم أنه قرأ : « ينفخ » بالبناء للفاعل ، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل ﴿ **عالم الغيب** ﴾ ويجوز أن يرتفع بفعل مقدر كما أنشد سيبويه (١) :

لِيُبكَ يَزيدٌ ضَارِعٌ لِخُصومَة وَمُخْتَبِط مِما تُطيحُ الطَّوَائحْ

أى يبكيه مختبط . وقرأ الحسن والأعمش : « عالم » بالخفض على البدل من الهاء فى : ﴿ **له الملك** ﴾ . ﴿**وهو الحكيم** ﴾ فى جميع ما يصدر عنه ﴿ **الخبير** ﴾ بكل شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وكذب به قومك** ﴾ يقول : كذبت قريش بالقرآن ﴿ **وهو الحق** ﴾ وأما الوكيل فالحفيظ ، وأما ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ فكان نبأ القوم استقر يوم بدر بما كان بعدهم من العذاب . وأخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ قال : نسخ هذه الآية آية السيف ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ قال : حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها أرسلت عقوبتها . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لكل نبأ مستقر** ﴾ قال : فعل وحقيقة ما كان منه فى الدنيا وما كان منه فى الآخرة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم** ﴾ ونحو هذا فى القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا** ﴾ قال : يستهزئون بها ، نهى محمدًا ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى ، فإذا ذكر فليقم وذلك قول الله : ﴿ **فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين ، أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت فى أهل الأهواء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم فى الحلية عن أبى جعفر قال : لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن على قال : إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون فى آيات الله . وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال : كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبى ﷺ خاضوا واستهزؤوا ، فقال المسلمون : لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ أيضًا عن السدى أنه قال : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف .

---

(١) هذا البيت للشاعر : الحارث بن نهيك . وصف أنه كان مقيمًا لحجة المظلوم ناصرًا له ، والمختبط : الطالب المعروف ، وتطيح : تذهب وتهلك .

وأخرج النحاس عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء** ﴾ قال : نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية ، وهى قوله : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات اللّه يكفر بها ﴾ [النساء : ١٤٠] الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء** ﴾ إن قعدوا ولكن لا يقعدوا . وأخرج ابن أبى شيبة عن هشام بن عروة عن عمر بن عبد العزيز ؛ أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه وقال : لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا** ﴾ قال : هو مثل قوله : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدًا ﴾ [المدثر : ١١] يعنى أنه للتهديد . وأخرج عبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه عن قتادة فى هذه الآية قال : نسختها آية السيف . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **لعبًا ولهوًا** ﴾ قال : أكلا وشربًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أن تبسل** ﴾ قال : تسلم ، وفى قوله : ﴿ **أبسلوا بما كسبوا** ﴾ قال: أسلموا بجرائرهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **قل أندعو من دون اللّه** ﴾ قال : هذا مثل ضربه اللّه للآلهة وللدعاة الذين يدعون إلى اللّه . وقوله : ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض** ﴾ يقول : أضلته ، وهم الغيلان يدعونه باسمه و سم أبيه وجده فيتبعها ، ويرى أنه فى شىء ، فيصبح وقد ألقته فى هلكة ، وربما أكلته ، أو تلقيه فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشًا . فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله: ﴿ **كالذى استهوته الشياطين** ﴾ قال : هو الرجل لا يستجيب لهدى اللّه ، وهو الرجل أطاع الشيطان وعمل فى الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه ، و﴿ **له أصحاب يدعونه إلى الهدى** ﴾ ويزعمون أن الذى يأمرونه به هدى يقول اللّه ذلك لأوليائهم من الإنس يقول : ﴿ **إن الهدى هدى اللّه** ﴾ والضلالة ما تدعو إليه الجن .

وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن عبد اللّه بن عمرو قال : سئل النبى ﷺ عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » [(١)] .

---

(١) ابن المبارك فى الزهد (١٥٩٩) وأبو داود فى السنة (٤٧٤٢) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٣٠) وفى التفسير (٣٢٤٤) وقال : « حسن » والنسائى فى التفسير (٣٣٢ ، ٤٠١ ، ٤٧٦) وابن حبان فى إخباره عن البعث وأحوال الناس فيه (٧٢٦٨) وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٦ ، ٥٠٦ ، ٤/ ٥٦٠ ووافقه الذهبى . ورواه كذلك أحمد ٢/ ١٦٢ ، ١٩٢٠ والدارمى فى الرقائق ٢/ ٣٢٥ وابن جرير١٦/ ٢٤ وأبو نعيم ٧/ ٢٤٣ فى ترجمة مسعر بن كدام .

والأحاديث الواردة فى كيفية النفخ ثابتة فى كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها ها هنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ يعنى : إن عالم الغيب والشهادة هو الذى ينفخ فى الصور .

﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فلمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾**

قوله : ﴿ **لأبيه آزر** ﴾ قال الجوهرى : آزر اسم أعجمى ، وهو مشتق من آزر فلان فلانًا : إذا عاونه ، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام . وقال ابن فارس : إنه مشتق من القوة : قال الجوينى فى النكت من التفسير له : ليس بين الناس اختلاف فى أنه اسم والد إبراهيم تارخ ، والذى فى القرآن يدل على أن اسمه آزر . وقد تعقب فى دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق والضحاك والكلبى أنه كان له اسمان آزر وتارخ . وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارخ اسم ، وقال سليمان التيمى : إن آزر سب وعتب ، ومعناه فى كلامهم المعوج . وقال الضحاك : معنى آزر : الشيخ الهم بالفارسية . وقال الفراء : هى صفة ذم بلغتهم كأنه قال : يا مخطئ . وروى مثله عن الزجاج . وقال مجاهد : هو اسم صنم . وعلى هذا إطلاق اسم الصنم على أبيه : إما للتعيير له لكونه معبوده ، أو على حذف مضاف ، أى قال لأبيه عابدا آزر أو أتعبد آزر على حذف الفعل ، وقرأ ابن عباس : « أإزر » بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ، وروى عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين ، ومحل ﴿ **إذ قال** ﴾ النصب على تقدير : واذكر إذ قال إبراهيم ، ويكون هذا المقدر معطوفا على ﴿ **قل أندعو من دون الله** ﴾ وقيل : هو معطوف على ﴿ **وذكر به أن تُبسل** ﴾ وآزر عطف بيان .

قوله : ﴿ **أتتخذ أصناما آلهة** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى أتجعلها آلهة لك تعبدها ﴿ **إنى أراك وقومك** ﴾ المتبعين لك فى عبادة الأصنام ﴿ **فى ضلال** ﴾ عن طريق الحق ﴿ **مبين** ﴾ واضح ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم** ﴾ أى ومثل تلك الإراءة نرى إبراهيم ، والجملة معترضة ، و﴿ **ملكوت السموات والأرض** ﴾ ملكهما ، وزيدت التاء والواو للمبالغة فى الصفة ، ومثله الرغبوت والرهبوت مبالغة فى الرغبة والرهبة. قيل : أراد بملكوت السموات والأرض ما فيهما من الخلق . وقيل : كشف اللّه عن ذلك حتى رأى إلى العرش وإلى أسفل الأرضين . وقيل : رأى من ملكوت السموات والأرض ما قصه اللّه فى هذه الآية . وقيل : المراد بملكوتهما : الربوبية والإلهية ، أى نريه ذلك ونوفقه لمعرفته بطريق الاستدلال التى سلكها . ومعنى ﴿ **نرى** ﴾ أريناه ، حكاية حال ماضية .

قوله : ﴿ **وليكون من الموقنين** ﴾ متعلق بمقدر ، أى أريناه ذلك ﴿ **ليكون من الموقنين** ﴾ وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام ، والكواكب والشمس والقمر ، فأراد أن ينبههم على الخطأ ، وقيل : إنه ولد فى سرب وجعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يمصها ، وسبب جعله فى السرب: أن النمروذ رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود ، واللّه أعلم .

قوله : ﴿ **فلما جنّ عليه الليل** ﴾ أى ستره بظلمته ، ومنه الجَنَّةَ والمِجَنّ والجِنُّ كلُّه من الستر. قال الشاعر[(١)] :

وَلَولا جَنَانُ اللَّيلِ أَدْرَكَ رَكْضُنَا   بذى الرِّمْث [(٢)] والأَرطى عِياضَ بن نَاشبِ

والفاء للعطف على : ﴿ **قال إبراهيم** ﴾ أى واذكر إذ قال : وإذ جنّ عليه الليل ، فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه ، وجواب لما : ﴿ **رأى كوكبا** ﴾ قيل : رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذى كان فيه . وقيل : رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس . قيل : رأى المشترى . وقيل : الزهرة .

قوله : ﴿ **هذا ربى** ﴾ جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال عند رؤية الكوكب ؟ قيل : وكان هذا منه عند قصور النظر لأنه فى زمن الطفولية . وقيل : أراد قيام الحجة على قومه كالحاكى لما هو عندهم ، وما يعتقدونه ، لأجل إلزامهم ، وبالثانى قال الزجاج . وقيل: هو على حذف حرف الاستفهام ، أى أهذا ربى ؟ ومعناه: إنكار أن يكون مثل هذا ربًا ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء : ٣٤] أى أفهم الخالدون ، ومثله قول الهُذَلى :

رَفونِى وَقَالوا يا خُوَيْلِدُ لم تُرَعْ   فقُلْتُ وَأَنكرْتُ الوجوهَ هُمُ هُمْ

---

(١) الشاعر : دريد بن الصمة ، وقيل : خفاف بن ندبة .

(٢) الرمث بالكسر : مرعى من مراعى الإبل ، واسم وادكان لبنى أسد ، والأرطى : جمع أرطاة وهو شجر ينبت بالرمل .

أى أهم هم ؟ وقول الآخر [١] :

لَعَمْرُكَ مَا أدْرى وَإن كُنْتُ دَارِيا بسبع رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بثمان

أى أبسبع ، وقيل : المعنى : وأنتم تقولون : هذا ربى ، فأضمر القول ، وقيل : المعنى على حذف مضاف ، أى هذا دليل ربى ﴿ **فلما أفل** ﴾ أى غرب ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **لا أحب الآفلين** ﴾ أى الآلهة التى تغرب ، فإن الغروب تغير من حال إلى حال ، وهو دليل الحدوث ﴿ **فلما رأى القمر بازغًا** ﴾ أى طالعًا ، يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ فى الطلوع ، والبزغ : الشق كأنه [٢] يشق بنوره الظلمة ﴿ **فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى** ﴾ أى لئن لم يثبتنى على الهداية ويوفقنى للحجة ﴿ **لأكونن من القوم الضالين** ﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ، ويحرمونها حظًا من الخير ﴿ **لأكونن من القوم الضالين** ﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ، ويحرمونها حظها من الخير ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة** ﴾ بازغًا وبازغة منصوبان على الحال ؛ لأن الرؤية بصرية ، وإنما ﴿ **قال هذا ربى** ﴾ مع كون الشمس مؤنثة ؛ لأن مراده هذا الطالع ، قاله الكسائى والأخفش . وقيل : هذا الضوء . وقيل : الشخص ﴿ **هذا أكبر** ﴾ أى بما تقدمه من الكوكب والقمر ﴿ **قال يا قوم إنى برىء مما تشركون** ﴾ أى من الأشياء التى تجعلونها شركاء للّه وتعبدونها ، وما موصولة أو مصدرية ، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر مستدلا على ذلك بأفولها الذى هو دليل حدوثها ﴿ **إنى وجهت وجهى** ﴾ أى قصدت بعبادتى وتوحيدى اللّه عز وجل ، وذكر الوجه لأنه العضو الذى يعرف به الشخص ، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدم ، وقد تقدم معنى ﴿ **فطر السموات والأرض حنيفًا** ﴾ مائلا إلى الدين الحق .

قوله : ﴿ **وحاجه قومه** ﴾ أى وقعت منهم المحاججة له فى التوحيد بما يدل على ما يدعونه من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة ، فأجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه اللّه عنه أنه قال : ﴿ **أتحاجونى فى الله** ﴾ أى فى كونه لا شريك له ولاند ولا ضدّ . وقرأ نافع بتخفيف نون أتحاجونى . وقرأ الباقون بتشديدها بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية ونافع خفف فحذف إحدى النونين وقد أجاز ذلك سيبويه . وحكى عن أبى عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن ، وجملة : ﴿ **وقد هدانى** ﴾ فى محل نصب على الحال أى هدانى إلى توحيده وأنتم تريدون أن أكون مثلكم فى الضلالة والجهالة وعدم الهداية .

قوله : ﴿ **ولا أخاف ما تشركون به** ﴾ قال هذا لما خوّفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه ، أى إنى لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات اللّه لا يضر ولا ينفع ، والضمير فى « به » يجوز رجوعه إلى اللّه وإلى معبوداتهم المدلول عليها بما فى ﴿ **تشركون به إلا**

---

(١) الشاعر هو : عمر بن أبى ربيعة .

(٢) فى المطبوعة : «كان» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أن يشاء ربى شيئًا ﴾ أى إلا وقت مشيئة ربى يلحقنى شيئا من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه ، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التى لا تضر ولا تنفع ، والمعنى : على نفى حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال ، وإثبات الضرر والنفع للّه سبحانه وصدورهما حسب مشيئته ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **وسع ربى كل شىء علما** ﴾ أى إن علمه محيط بكل شىء فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته ، وإذا شاء إنزال شرٍّ بى كان ، ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، ثم قال لهم مكملا للحجة عليهم ودافعا لما خوفوه به ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم باللّه ما لم ينزل به عليكم سلطانا** ﴾ أى كيف أخاف مالا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق ، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك باللّه ، وهو الضار ، النافع ، الخالق ، الرازق ، والاستفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم و « ما » فى ﴿ **ما لم ينزل به عليكم سلطانا** ﴾ مفعول أشركتم ، أى ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التى لم ينزل بها عليكم سلطانا شركاء للّه ، أو المعنى : أن اللّه سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له ، ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها فكيف عبدوها واتخذوها آلهة وجعلوها شركاء للّه سبحانه ؟

قوله : ﴿ **فأى الفريقين أحق بالأمن** ﴾ المراد بالفريقين : فريق المؤمنين ، وفريق المشركين ، أى إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودى هو اللّه المتصف بتلك الصفات ، ومعبودكم هى تلك المخلوقات ، فكيف تخوفونى بها ، وكيف أخافها وهى بهذه المنزلة ولا تخافون من إشراككم باللّه سبحانه ، وبعد هذا فأخبرونى أى الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ بحقيقة الحال وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة ؟ ثم قال اللّه سبحانه قاضيا بينهم وسبينًا لهم : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ أى هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا . وقيل : هومن تمام قول إبراهيم ، وقيل :هو من قول قوم إبراهيم . ومعنى ﴿ **لم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ :لم يخلطوه بظلم ، والمراد بالظلم :الشرك ، لما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول اللّه ﷺ . وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول **اللّه** ﷺ : « ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان : ﴿ يا بنى لا تشرك باللّه إن الشرك لظلم عظيم ﴾ »[(١)][لقمان : ١٣] . والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول فى تفسير هذه الآية : وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس[(٢)] . وهو لا يدرى أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا ، وإذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل . والإشارة بقوله: ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول المتصف بما سبق . و﴿**لهم الأمن** ﴾ جملة وقعت خبرًا عن اسم الإشارة . هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه ﴿ **وهم مهتدون**﴾ إلى الحق ثابتون عليه وغيرهم على ضلال وجهل .

---

(١) البخارى فى الإيمان (٣٢) وفى الأنبياء (٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩) وفى التفسير(٤٦٢٩، ٤٧٧٦) وفى استتابة المرتدين (٦٩١٨، ٦٩٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٢٤/ ١٩٧، ١٨٩) .

(٢) الكشاف ٢/ ٤٣ .

والإشارة بقوله : ﴿**تلك حجتنا**﴾ إلى ما تقدم من الحجج التى أوردها إبراهيم عليهم ، أى تلك البراهين التى أوردها إبراهيم عليهم من قوله: ﴿**فلما جن عليه الليل**﴾ إلى قوله : ﴿**وهم مهتدون**﴾. ﴿**تلك حجتنا آتيناها إبراهيم**﴾ أى أعطيناه إياها وأرشدناه إليها ، وجملة: ﴿**آتيناها إبراهيم**﴾ فى محل نصب على الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة ﴿**على قومه**﴾ أى حجة على قومه ﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾ بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك ﴿**إن ربك حكيم عليم**﴾ أى حكيم فى كل ما يصدر عنه ، عليم بحال عباده ، وآن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لا يستحقه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾ قال: الآزر: الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه يازر ، وأمه اسمها مثلى وامرأته اسمها سارة، وسريته أم إسماعيل اسمها هاجر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اسم أبيه تارخ ، واسم الصنم آزر . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سليمان التيمى ، أنه قرأ : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾ قال : بلغنى أنها أعوج وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ، أنه قال : إن والد إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما اسمه تارخ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض** ﴾ قال :الشمس والقمر والنجوم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال فى الآية : كشف ما بين السموات حتى نظر إليهن على صخرة ، والصخرة على حوت ، وهو الحوت الذى منه طعام الناس ، والحوت فى سلسلة ، والسلسلة فى خاتم العزة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال : سلطانهما .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **وحاجه قومه** ﴾ يقول : خاصموه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أتحاجونى** ﴾ قال : أتخاصمونى .

وأخرج ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى بكر الصديق أنه فسر ﴿ **ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ بالشرك . وكذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب . وكذلك أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن حذيفة بن اليمان . وكذلك أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سلمان الفارسى . وكذلك أخرجا أيضا عن أبى بن كعب . وكذلك أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس . وأخرج عنه من طريق أخرى عن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ

مثله ، وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ذلك ، ويغنى عن الجميع ما قدمنا عن رسول الله ﷺ فى تفسير الآية كما هو ثابت فى الصحيحين وغيرهما (١) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** ﴾ قال : خصمهم . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **نرفع درجات من نشاء** ﴾ قال :بالعلم . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء .

﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)** ﴾

قوله : ﴿ **ووهبنا له** ﴾ معطوف على جملة : ﴿ **وتلك حجتنا** ﴾ عطف جملة فعلية على جملة اسمية. وقيل : معطوف على ﴿ **آتيناها** ﴾ والأول أولى . والمعنى : ووهبنا له ذلك جزاء له على الاحتجاج فى الدين وبذل النفس فيه ، و﴿ **كلا هدينا** ﴾ انتصاب ﴿ **كلا** ﴾ على أنه مفعول لما بعده مقدم عليه للقصر ، أى كل واحد منهما هديناه ، وكذلك نوحا منصوب بهدينا الثانى أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿ **ومن ذريته** ﴾ أى من ذرية إبراهيم ، وقال الفراء : من ذرية نوح . واختاره ابن جرير الطبرى والقشيرى وابن عطية ، واختار الأول الزجاج ، واعترض عليه بأنه عد من هذه الذرية يونس ولوطًا وما كان من ذرية إبراهيم ، فإن لوطا هو ابن أخى إبراهيم (٢) ، وانتصب ﴿ **داود وسليمان** ﴾ بفعل مضمر ، أى وهدينا من ذرية داود وسليمان وكذلك ما بعدها ، وإنما عدَّ الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التى عددها على إبراهيم؛ لأن شرف الأبناء متصل بالآباء . ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ فى قوله : ﴿ **ونوحًا هدينا من قبل** ﴾ أى من قبل إبراهيم ، والإشارة بقوله : ﴿ **وكذلك** ﴾ إلى مصدر الفعل

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) والعرب تجعل العم أبا كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا : ﴿ **نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق** ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

المتأخر ، أى ومثل ذلك الجزاء ﴿ **نجزى المحسنين** ﴾ .

﴿ **وإلياس** ﴾ قال الضحاك : هو من ولد إسماعيل ، وقال القتيبى : هو من سبط يوشع بن نون . وقرأ الأعرج والحسن وقتادة : « والياس » بوصل الهمزة ، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم : « واليسع » مخففا . وقرأ الكوفيون إلا عاصمًا بلامين ، وكذلك قرأ الكسائى ورد القراءة الأولى ، ولا وجه للرد فهو اسم أعجمى ، والعجمة لا تؤخذ بالقياس بل تؤدى على حسب السماع ، ولا يمتنع أن يكون فى الاسم لغتان للعجم ، أو تغيره العرب تغييرين : قال المهدوى من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع ، والألف واللام مزيدتان ، كما فى قول الشاعر[١] :

رأيت الوَلِيد بنَ اليَزيدَ مُبَارَكًا شديدًا بأعباء الخلافة كَاهله

ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع ، وقد توهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم فإن الله أفرد كل واحد منهما، وقال وهب : اليسع صاحب إلياس ، وكانوا قبل يحيى وعيسى وزكريا . وقيل: إلياس هو إدريس ، وهذا غير صحيح ؛ لأن إدريس جد نوح وإلياس من ذريته . وقيل: إلياس هو الخضر . وقيل : لا بل اليسع هو الخضر ﴿ **وكلا فضلنا على العالمين** ﴾ أى كل واحد فضلناه بالنبوة على عالمى زمانه والجملة معترضة .

قوله : ﴿ **ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم** ﴾ أى هدينا و« من » للتبعيض، أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وأزواجهم ﴿ **واجتبيناهم**﴾ معطوف على فضلنا . والاجتباء : الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار ، مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته ، فالاجتباء : ضم الذى تجتبيه إلى خاصتك . قال الكسائى : جبيت الماء فى الحوض جبًا مقصورة ، والجابية الحوض ، قال الشاعر [٢] :

كجابية الشيخ العراقى تفهق [٣]

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك هدى الله** ﴾ إلى الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة ﴿**يهدى به**﴾ الله ﴿ **من يشاء من عباده** ﴾ وهم الذين وفقهم للخير واتباع الحق ﴿ **ولو أشركوا** ﴾ أى هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله ﴿ **لحبط عنهم** ﴾ من حسناتهم ﴿ **ما كانوا يعملون** ﴾ والحبوط : البطلان . وقد تقدم تحقيقه فى البقرة . والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ إلى الأنبياء المذكورين سابقا ، أى جنس الكتاب ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين ﴿ **والحكم** ﴾ العلم ﴿ **والنبوة** ﴾ الرسالة ، أى ما هو أعم من ذلك ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء** ﴾ الضمير فى بها للحكم والنبوة والكتاب ، أو للنبوة فقط ، والإشارة بهؤلاء

---

(١) الشاعر هو : ابن ميادة .

(٢) الشاعر : أعشى قيس .

(٣) هذا عجز البيت وصدره :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة

والجفنة : القصعة . والفهق : الامتلاء .

إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ ﴿ **فقد وكلنا بها قومًا** ﴾ هذا جواب الشرط ، أى آلزمنا بالإيمان بها قومًا ﴿ **ليسوا بها بكافرين** ﴾ وهم المهاجرون والأنصار أوالأنبياء المذكورون سابقًا، وهذا أولى لقوله فيما بعد : ﴿ **أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده** ﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار ، إذ لا يصح أن يؤمر النبى ﷺ بالاقتداء بهداهم، وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء . والاقتداء : طلب موافقة الغير فى فعله. وقيل : المعنى :اصبر كما صبروا . وقيل : اقتد بهم فى التوحيد ، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة ، وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص .

قوله : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا** ﴾ أمره اللّه بأن يخبرهم بأنه لا يسألهم أجرًا على القرآن، وأن يقول لهم ما ﴿ **هو إلا ذكرى** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **للعالمين** ﴾ أى موعظة وتذكير للخلق كافة ، الموجودين عند نزوله ، ومن سيوجد من بعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : الخال والد ، والعم والد ، نسب اللّه عيسى إلى أخواله فقال : ﴿ **ومن ذريته** ﴾ حتى بلغ إلى قوله : ﴿ **وزكريا ويحيى وعيسى** ﴾ . وأخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقى عن عبد الملك بن عمير قال : دخل يحيى بن يعمر على الحجاج فذكر الحسين ، فقال الحجاج :لم يكن من ذرية النبى، فقال يحيى : كذبت ، فقال : لتأتينى على ما قلت ببينة ، فتلا : ﴿ **ومن ذريته** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وعيسى** ﴾ فأخبر اللّه بأن عيسى من ذرية آدم بأمه ، فقال : صدقت . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى تجده فى كتاب اللّه ؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ، فذكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**واجتبيناهم** ﴾ قال :أخلصناهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ قال : يريد هؤلاء الذين هديناهم وفعلنا بهم . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : الحكم : اللب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء** ﴾ يعنى أهل مكة ، يقول : إن يكفروا بالقرآن ﴿ **فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين** ﴾ يعنى أهل المدينة والأنصار . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فقد وكلنا بها قومًا** ﴾ قال : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم : ﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رجاء العطاردى قال فى الآية:هم الملائكة. وأخرج البخارى والنسائى وغيرهما عن ابن عباس فى قوله:

﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾ قال : أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهداهم وكان يسجد فى ص [١] ، ولفظ ابن أبى حاتم عن مجاهد : سألت ابن عباس عن السجدة التى فى ص ، فقال : هذه الآية، وقال : أمر نبيكم أن يقتدى بداود عليه السلام [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرًا** ﴾ قال : قل لهم يا محمد : لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضًا من عروض الدنيا .

﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)** ﴾

قوله : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ قدرت الشىء وقدرته : عرفت مقداره ، وأصله : الستر ، ثم استعمل فى معرفة الشىء ، أى لم يعرفوه حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسل ، وإنزاله للكتب . وقيل : المعنى : وما قدروا نعم الله حق تقديرها . وقرأ أبو حيوة : « وما قدروا الله حق قدره » بفتح الدال : وهى لغة ، ولما وقع منهم هذا الإنكار وهم من اليهود أمر الله نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها ، فقال : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ وهم يعترفون بذلك ويذعنون له، فكان فى هذا من التبكيت لهم والتقريع مالا يقادر قدره ، مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه ، من وقوع إنزال الله على البشر، وهم الأنبياء عليهم السلام ، فبطل جحدهم وتبين فساد إنكارهم . وقيل : إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش ، فيكون إلزامهم بإنزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ،

---

(١) أحمد ١/ ٢٧٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ والبخارى فى سجود القرآن (١٠٦٩) وفى الأنبياء (٣٤٢٢) وأبو داود فى الصلاة (١٤٠٩) والترمذى فى الصلاة (٥٧٧) وقال : « حسن صحيح » كلهم أخرجوه مختصرا ، والنسائى فى التفسير (١٩٠) بلفظ قريب من نصه هنا.

(٢) أحمد ١/ ٣٦٠ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٢١) وفى التفسير (٤٦٣٢ ، ٤٨٠٦ ، ٤٨٠٧) والنسائى فى التفسير (١٨٩) وابن خزيمة (٥٥٢) وابن حبان (٢٧٥٥).

ويعلمونه بالأخبار من اليهود ، وقد كانوا يصدقونهم ، و﴿ **نورًا وهدى** ﴾ منتصبان على الحال ، و﴿ **للناس** ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لهدى ، أى كائنًا للناس .

قوله : ﴿ **تجعلونه قراطيس** ﴾ أى تجعلون الكتاب الذى جاء به موسى فى قراطيس تضعونه فيها ليتم لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل ، وكتم صفة النبى ﷺ المذكورة فيه ، وهذا ذم لهم ، والضمير فى : ﴿ **تبدونها** ﴾ راجع إلى القراطيس ، وفى ﴿ **تجعلونه** ﴾ راجع إلى الكتاب ، وجملة : ﴿ **تجعلونه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وجملة : ﴿ **تبدونها** ﴾ صفة لقراطيس ﴿ **وتخفون كثيرًا** ﴾ معطوف على ﴿ **تبدونها** ﴾ أى وتخفون كثيرًا منها ، والخطاب فى : ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ لليهود ، أى والحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقررة لما قبلها ، والذى علموه هو الذى أخبرهم به نبينا محمد ﷺ من الأمور التى أوحى الله إليه بها ، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم ولا على لسان أنبيائهم ، ولا علمه آباؤهم ويجوز أن تكون « ما » فى ﴿ **مالم تعلموا** ﴾ عبارة عما علموه من التوراة ، فيكون ذلك على وجه المن عليهم بإنزال التوراة . وقيل : الخطاب للمشركين من قريش وغيرهم ، فتكون « ما » عبارة عما علموه من رسول الله ﷺ ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذى ألزمهم به حيث قال : ﴿ **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ فقال : ﴿ **قل الله** ﴾ أى أنزله الله ﴿ **ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ أى ذرهم فى باطلهم حال كونهم يلعبون ، أى يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون .

قوله : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ هذا من جملة الرد عليهم فى قولهم : ﴿ **ما أنزل الله على بشر من شىء** ﴾ أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى ، وعقبه بقوله : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه** ﴾ يعنى على محمد ﷺ فكيف تقولون : ﴿ **ما أنزل الله على بشر من شىء** ﴾ ومبارك ومصدق صفتان لكتاب ، والمبارك : كثير البركة ، والمصدق : كثير التصديق ، والذى بين يديه : ما أنزل الله من الكتب على الأنبياء من قبله : كالتوراة والإنجيل ، فإنه يوافقها فى الدعوة إلى الله وإلى توحيده ، وإن خالفها فى بعض الأحكام .

قوله : ﴿ **ولتنذر** ﴾ قيل : هو معطوف على ما دل عليه ، مبارك كأنه قيل : أنزلناه للبركات ولتنذر ، وخص أم القرى وهى مكة ؛ لكونها أعظم القرى شأنًا ولكونها أول بيت وضع للناس ، ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم ، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض ، والمراد بمن حولها : جميع أهل الأرض ، والمراد بإنذار أم القرى : إنذار أهلها وأهل سائر الأرض فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية ﴿ **والذين يؤمنون بالآخرة** ﴾ مبتدأ ، و﴿ **يؤمنون به** ﴾ خبره والمعنى : أن من حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب ، ويصدق ويعمل بما فيه ؛ لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرها ، ويندفع به ضرها . وجملة : ﴿ **وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وخص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات ؛ لكونها عمادها وبمنزلة الرأس

لها .

قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبًا** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن اللّه أنزل الكتب على رسله ، أى كيف تقولون ما أنزل اللّه على بشر من شىء وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام ، ولا أحد أظلم ممن افترى على اللّه كذبا فزعم أنه نبى وليس بنبى ، أو كذب على اللّه فى شىء من الأشياء ﴿ **أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء** ﴾ أى والحال أنه لم يوح إليه شىء ، وقد صان اللّه أنبياءه عما تزعمون عليهم ، وإنما هذا شأن الكذابين رؤوس الإضلال كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، وسجاح .

قوله : ﴿ **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل اللّه** ﴾ معطوف على ﴿ **من افترى** ﴾ أى ومن أظلم ممن افترى أو ممن قال : أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ، أو ممن قال : سأنزل مثل ما أنزل اللّه ، وهم القائلون : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : ٣١] وقيل : هو عبد اللّه بن أبى سرح [١] ، فإنه كان يكتب الوحى لرسول اللّه ﷺ فأملى عليه رسول اللّه ﷺ : ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ فقال عبد اللّه : ﴿ فتبارك اللّه أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : ١٤] فقال رسول اللّه ﷺ : «هكذا أنزلت » فشك عبد اللّه حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقًا لقد أوحى إلى كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذبًا لقد قلت كما قال : ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف . ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت** ﴾ الخطاب لرسول اللّه ﷺ أو لكل من يصلح له ، والمراد كل ظالم ، ويدخل فيه الجاحدون لما أنزل اللّه والمدعون للنبوات افتراء على اللّه دخولاً أوليًا ، وجواب « لو » محذوف ، أى لرأيت أمرا عظيمًا . والغمرات جمع غمرة : وهى الشدة ، وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ومنه غمرة الماء ، ثم استعملت فى الشدائد ، ومنه غمرة الحرب . قال الجوهرى : والغُمْرة : الشدة ، والجمع غمر : مثل نَوْبة ونُوب ، وجملة : ﴿ **والملائكة باسطو أيديهم** ﴾ فى محل نصب ، أى والحال أن الملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواح الكفار . وقيل : للعذاب ، وفى أيديهم مطارق الحديد ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

قوله : ﴿ **أخرجوا أنفسكم** ﴾ أى قائلين لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التى وقعتم فيها ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب ، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وسلموها إلينا لنقبضها ﴿ **اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ أى اليوم الذى تقبض فيه أرواحكم ، أو أرادوا باليوم الوقت الذى يعذبون فيه الذى مبدؤه عذاب القبر ، والهون والهوان بمعنى ، أى

(١) راجع كلمة وافية عن عبد اللّه بن أبى سرح فى كتابنا : رجال أنزل اللّه فيهم قرآنا . ط . دار الجيل ، لبنان «المحقق» .

اليوم تجزون عذاب الهوان الذى تصيرون به فى إهانة ومذلة ، بعد ما كنتم فيه من الكبر والتعاظم، والباء فى : ﴿ **بما كنتم تقولون على اللّه غير الحق** ﴾ للسببية ، أى بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال اللّه كتبه على رسله والإشراك به ﴿ **وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ عن التصديق لها والعمل بها فكان ماجوزيتم به من عذاب الهون ، جزاءً وفاقا .

قوله : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى** ﴾ قرأ أبو حيوة : « فرادى » بالتنوين ، وهى لغة تميم ، وقرأ الباقون بألف التأنيث للجمع فلم ينصرف . وحكى ثعلب : « فراد » بلا تنوين مثل : ثلاث ورباع ، وفرادى جمع فرد ، كسكارى جمع سكران وكسالى جمع كسلان ، والمعنى :جئتمونا منفردين واحدًا واحدًا كل واحد منفرد عن أهله وماله ، وما كان يعبده من دون اللّه فلم ينتفع بشىء من ذلك ﴿ **كما خلقناكم أول مرة** ﴾ أى على الصفة التى كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم ، والكاف نعت مصدر محذوف، أى جئتمونا مجيئًا مثل مجيئكم عند خلقنا لكم، أوحال من ضمير﴿ **فرادى** ﴾ أى متشابهين ابتداء خلقنا لكم ﴿ **وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾ أى أعطيناكم . والخول : ما أعطاه اللّه للإنسان من متاع الدنيا ، أى تركتم ذلك خلفكم لم تأتونا بشىء منه ، ولا انتفعتم به بوجه من الوجوه ﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم الذين** ﴾ عبدتموهم وقلتم: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى ﴾ [الزمر : ٣] و ﴿ **زعمتم أنهم فيكم شركاء** ﴾ للّه يستحقون منكم العبادة كما يستحقها .

قوله : ﴿ **لقد تقطع بينكم** ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص بنصب ﴿ بينكم ﴾ على الظرفية ، وفاعل ﴿**تقطع**﴾ محذوف ، أى تقطع الوصل بينكم أنتم وشركاؤكم كما يدل عليه ﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم** ﴾ وقرأ الباقون بالرفع على إسناد التقطع إلى البين ، أى وقع التقطع بينكم ، ويجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع فى إسناد الفعل إلى الظرف ، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفًا . وقرأ ابن مسعود :« لقد تقطع ما بينكم » على إسناد الفعل إلى « ما » أى الذى بينكم ﴿ **وضل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ من الشركاء والشرك وحيل بينكم وبينهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره** ﴾ قال :هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة اللّه ، فمن آمن أن اللّه على كل شىء . قدير قد قدر اللّه حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر اللّه حق قدره إذ قالوا : ما أنزل اللّه على بشر من شىء . قالت اليهود:يا محمد ، أنزل الله عليك كتابا ؟ قال : « نعم » قالوا : والله ما أنزل اللّه من السماء كتابًا ، فأنزل اللّه : ﴿ **قل** ﴾ يا محمد : ﴿ **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ إلى آخر الآية [١] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **وما قدروا اللّه حق قدره إذ قالوا ما أنزل اللّه على بشر من شىء** ﴾ قالها

(١) ابن جرير ٧/ ١٧٧ مختصرًا .

مشركو قريش . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : قال فنحاص اليهودى : ما أنزل اللّه على محمد من شىء ، فنزلت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : نزلت فى مالك بن الصيف [١] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التوراة أن اللّه يبغض الحبر السمين ؟ » وكان حبراً سميناً فغضب وقال : واللّه ما أنزل اللّه على بشر من شىء ، فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ قال: ما أنزل اللّه على بشر من شىء ، فنزلت [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **تجعلونه قراطيس** ﴾ قال:اليهود ، وقوله : ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ قال : هذه للمسلمين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وعلمتم مالم تعلموا** ﴾ قال : هم اليهود آتاهم اللّه علما فلم يقتدوا به ولم يأخذوا به ولم يعملوا به ، فذمهم اللّه فى علمهم ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ قال : هو القرآن الذى أنزله اللّه على محمد ﷺ . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : ﴿ **مصدق الذى بين يديه** ﴾ أى من الكتب التى قد خلت قبله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ **ولتنذر أم القرى** ﴾ قال : مكة ومن حولها . قال : يعنى ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : إنما سميت أم القرى ؛ لأن أول بيت وضعت بها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولتنذر أم القرى** ﴾ قال : هى مكة ، قال : وبلغنى أن الأرض دحيت من مكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار نحوه . وأخرج الحاكم فى المستدرك عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح: ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبًا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء** ﴾ الآية. فلما دخل رسول اللّه ﷺ مكة فرّ إلى عثمان أخيه من الرضاعة فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة ، ثم استأمن له [٣]. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى خلف الأعمى: أنها نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح. وكذلك روى ابن أبى حاتم عن السدى.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء** ﴾ قال : نزلت فى مسيلمة الكذاب ونحوه ممن

---

(١) ابن جرير ٧/ ١٧٦ ، ١٧٧ . (٢) المرجع السابق ٧/ ١٧٦ .

(٣) الحاكم فى المستدرك ٣/ ٤٥ ، ٤٦ وسكت عنه وكذلك الذهبى .

دعا إلى مثل ما دعا إليه ﴿ **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل اللّه** ﴾ قال :نزلت فى عبد الله بن سعد ابن أبى سرح . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه [(١)] . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت : ﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا ﴾ [المرسلات : ١ ، ٢] . قال : النضر وهو من بنى عبد الدار : والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا قولا كثيرا ، فأنزل اللّه : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على اللّه كذبا** ﴾ الآية : وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله :﴿ **غمرات الموت** ﴾ قال :سكرات الموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال فى قوله : ﴿ **والملائكة باسطو أيديهم** ﴾ هذا عند الموت ، والبسط : الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [محمد : ٢٧] . وأخرج أبو الشيخ عنه قال فى الآية : هذا ملك الموت عليه السلام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **والملائكة باسطو أيديهم** ﴾ قال : بالعذاب .وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **عذاب الهون** ﴾ قال : الهوان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : قال النضر بن الحارث : سوف تشفع لى اللات والعزى ، فنزلت : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى** ﴾ الآية ، قال : كيوم ولد يردّ عليه كل شيء نقص منه يوم ولد [(٢)] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وتركتم ما خولناكم** ﴾ قال :من المال والخدم ﴿ **وراء ظهوركم** ﴾ قال : فى الدنيا ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **لقد تقطع بينكم** ﴾ قال : تواصلكم فى الدنيا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

---

(١) ابن جرير ٧/ ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ٥ / ١٨٩ .

قوله : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾ هذا شروع فى تعداد عجائب صنعه تعالى ، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شىء منه ، والفلق : الشق ، أى هو سبحانه فالق الحب فيخرج منه النبات، وفالق النوى فيخرج منه الشجر. وقيل : معنى ﴿ **فالق الحب والنوى** ﴾ : الشق الذى فيهما من أصل الخلقة. وقيل :معنى ﴿ **فالق** ﴾ خالق . والنوى : جمع نواة ، يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر ، والمشمش ، والخوخ .

قوله : ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ هذه الجملة خبر بعد خبر فهى فى محل رفع . وقيل : هى جملة مفسرة لما قبلها ؛ لأن معناها معناه ، والأول أولى ، فإن معنى ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾: يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهى ميتة. ومعنى ﴿ **ومخرج الميت من الحى**﴾: مخرج النطفة والبيضة وهى ميتة من الحى ، وجملة : ﴿ **ومخرج الميت من الحى** ﴾ معطوفة على ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ عطف جملة اسمية على جملة فعلية ، ولا ضير فى ذلك . وقيل : معطوفة على ﴿ فالق ﴾ على تقدير أن جملة : ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ مفسرة لما قبلها ، والأول أولى ، والإشارة بـ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاً و﴿ **الله** ﴾ خبره ، والمعنى : أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال ، والمُفْضِل بكل إفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته ؟ ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ مرتفع على أنه من جملة أخبار « إنّ » فى ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾ . وقيل : هو نعت للاسم الشريف فى ﴿ **ذلكم الله** ﴾ وقرأ الحسن وعيسى بن عمر : « فالق الأصباح » بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بكسرها، وهو على قراءة الفتح جمع صبح ، وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح . والصبح والصباح : أول النهار ، وكذا الإصباح ، وقرأ النخعى : « فلق الإصباح » بفعل وهمزة مكسورة . والمعنى فى : ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه ، أو يكون المعنى على حذف مضاف ، أى فالق ظلمة الإصباح ، وهى الغبش ، أو فالق عمود الفجر عن بياض النهار ؛ لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم يصير أبيض خالصاً . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وعاصم وحمزة والكسائى : ﴿**وجعل الليل سكنًا** ﴾ حملا على معنى :﴿ **فالق** ﴾ عند حمزة والكسائى ، وأما عند الحسن وعيسى فعطفا على « فلق » . وقرأ الجمهور : « وجاعل » عطفاً على ﴿ **فالق** ﴾ وقرئ : «فالق، وجاعل» بنصبهما على المدح . وقرأ يعقوب : « وجاعل الليل ساكنا » . والسكن محل السكون ، من سكن إليه : إذا اطمأن إليه ؛ لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة فى معاشهم ويستريحون من التعب والنصب .

قوله : ﴿ **والشمس والقمر حسبانا** ﴾ بالنصب على إضمار فعل ، أى وجعل الشمس والقمر ، وبالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : والشمس والقمر مجعولان حسبانا، وبالجر عطفا على الليل على قراءة من قرأ :« وجاعل الليل » ، قال الأخفش: والحسبان:

جمع حساب ، مثل شهبان وشِهاب . وقال يعقوب : حُسبان مصدر حَسَبْت الشيء أحسُبه حِسابًا وحُسبانًا . والحساب : الاسم . وقيل : الحسبان بالضم : مصدر حسب بالفتح ، والحِسبان بالكسر : مصدر حسب . والمعنى : جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه . وقيل : الحُسبان : الضياء ، وفى لغة : أن الحسبان النار، ومنه قوله تعالى : ﴿ ويرسل عليها حسبانا من السماء ﴾ [الكهف : ٤٠] والإشارة بـ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل، أو يجعل على القراءتين . والعزيز:القاهر الغالب. والعليم : كثير العلم ، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم .

قوله : ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر** ﴾ أى خلقها للاهتداء بها ﴿ **فى ظلمات** ﴾ الليل عند المسير ﴿ **فى البر والبحر** ﴾ وإضافة الظلمات إلى البر ؛ لكونها ملابسة لهما ، أو المراد بالظلمات : اشتباه طرقهما التى لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، وهذه إحدى منافع النجوم التى خلقها الله لها، ومنها ما ذكره الله فى قوله : ﴿ وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ [الصافات : ٧] ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين﴾ [الملك : ٥] ومنها : جعلها زينة للسماء ، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية ﴿ **قد فصلنا الآيات** ﴾ التى بيناها بيانًا مفصلاً لتكون أبلغ فى الاعتبار ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ بما فى هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته .

قوله : ﴿ **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة** ﴾ أى آدم عليه السلام كما تقدم . وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته ﴿ **فمستقر ومستودع** ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعى بكسر القاف والباقون بفتحها، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف، والتقدير: فمنكم مستقر أو فلكم مستقر ؛ التقدير الأول على القراءة الأولى ، والثانى على الثانية ، أى فمنكم مستقر على ظهر الأرض ، أو فلكم مستقر على ظهرها ، ومنكم مستودع فى الرحم ، أو فى باطن الأرض ، أو فى الصلب . وقيل: المستقر فى الرحم ، والمستودع فى الأرض . وقيل : المستقر فى القبر . قال القرطبى : وأكثر أهل التفسير يقولون : المستقر ما كان فى الرحم ، والمستودع ما كان فى الصلب . وقيل : المستقر من خلق ، والمستودع من لم يخلق . وقيل : الاستيداع إشارة إلى كونهم فى القبور إلى المبعث [1] . ومما يدل على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة : ٣٦] وذكر سبحانه هاهنا ﴿ **يفقهون** ﴾ وفيما قبله ﴿ **يعلمون** ﴾ لأن فى إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقراً وبعضها مستودعاً من الغموض والدقة ما ليس فى خلق النجوم للاهتداء ، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تدقيق ،

---

(١) القرطبى ٤ / ٢٤٨٢ ، ٢٤٨٣ .

وإمعان فكر .

قوله : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء** ﴾ هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته . والماء هو ماء المطر ، وفى ﴿ **فأخرجنا به** ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم ، إظهاراً للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه ، والضمير فى « به » عائد إلى الماء ، و﴿ **نبات كل شىء** ﴾ يعنى كل صنف من أصناف النبات المختلفة . وقيل : المعنى : رزق كل شىء ، والتفسير الأول أولى ، ثم فصل هذا الإجمال فقال : ﴿ **فأخرجنا منه خضراً** ﴾ قال الأخفش : أى أخضر . والخضر : رطب البقول ، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة. وقيل :يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب ﴿ **نخرج منه حبًا** ﴾ هذه الجملة صفة لـ ﴿**خضر**﴾ ، أى نخرج من الأغصان الخضرحبًا متراكبًا ، أى مركبا بعضه على بعض كما فى السنابل ﴿ **ومن النخل** ﴾ خبر مقدم و﴿ **من طلعها** ﴾ بدل منه ، وعلى قراءة من قرأ : « يخرج منه حب » يكون ارتفاع ﴿ **قنوان** ﴾ على أنه معطوف على حب، وأجاز الفراء فى غير القرآن « قِنْوانًا » عطفا على ﴿**حبا**﴾ ، وتميم يقولون : قنيان . وقرئ بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز . والطَّلْع : الكُفُرَّى قبل أن ينشق عن الإغريض ، والإغريض يسمى طلعًا أيضًا . والقِنوان : جمع قِنْو . والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثنى مكسور النون ، والجمع على ما يقتضيه الإعراب ، ومثله صنوان ، والقِنْو : العذْق . والمعنى : أن القِنوان : أصله من الطلع . والعذق : هو عنقود النخل ، وقيل : القنوان : الجمار. والدانية : القريبة التى ينالها القائم والقاعد . قال الزجاج : المعنى : منها دانية ومنها بعيدة فحذف ، ومثله ﴿ سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل : ٨١] وخص الدانية بالذكر؛ لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان ، وذلك فيما يقرب تناوله أكثر .

قوله : ﴿ **وجنات من أعناب** ﴾ قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى والأعمش وعاصم فى قراءته الصحيحة عنه برفع « جنات » ، وقرأ الباقون بالنصب . وأنكر القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم ؛ حتى قال أبو حاتم : هى محال ، لأن الجنات لا تكون من النخل .قال النحاس: ليس تأويل الرفع على هذا ولكنه رفع بالابتداء ، والخبر محذوف ، أى ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء ﴿ وحور عين ﴾ [الواقعة : ٢٢] وقد أجاز مثل هذا سيبويه والكسائى والفراء ، وأما على النصب فقيل : هو معطوف على ﴿ **نبات كل شىء** ﴾ أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب أو النصب بفعل يقدر متأخراً ، أى وجنات من أعناب أخرجناها ، وهكذا القول فى انتصاب الزيتون والرمان ؛ وقيل : هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين ، و﴿ **مشتبهًا** ﴾ منتصب على الحال ، أى كل واحد منهما يشبه بعضه بعضا فى بعض أوصافه ، ولا يشبه بعضه بعضًا فى البعض الآخر ، وقيل : إن أحدهما يشبه الآخر فى الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن وباعتبار حجمه ، ولا يشبه أحدهما الآخر فى الطعم ، وقيل: خص الزيتون والرمان : لقرب سنابتهما من العرب كما فى قول الله سبحانه : ﴿ أفلا ينظرون إلى

الإبل كيف خلقت ﴾ [الغاشية : ١٧] ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر ، وإلى ينعه إذا أينع . والثمر فى اللغة : جنى الشجر . واليانع : الناضج الذى قد أدرك وحان قطافه . قال ابن الأنبارى : الينع : جمع يانع ، كركب وراكب ، وقال الفراء : أينع : احمرّ . قرأ حمزة والكسائى :« ثمره » بضم الثاء والميم ، وقرأ الباقون بفتحها ، إلا الأعمش فإنه قرأ « ثمره » بضم الثاء وسكون الميم تخفيفاً . وقرأ محمد بن السميقع ، وابن محيصن ، وابن أبى إسحاق : « وينعه » بضم الياء التحتية . قال الفراء : هى لغة بعض أهل نجد ، وقرأ الباقون بفتحها ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن فى ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم ذكره مجملاً ومفصلاً ﴿ **لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ بالله استدلالا بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التى قصها عليهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾ يقول : خلق الحب والنوى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : يفلق الحب والنوى عن النبات . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الشقان اللذان فيهما . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله: ﴿ **يخرج الحى من الميت** ﴾ قال : النخلة من النواة ، والسنبلة من الحبة ﴿ **ومخرج الميت من الحى** ﴾ قال : النواة من النخلة ، والحبة من السنبلة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى** ﴾ قال : الناس الأحياء من النطف، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضا. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أى فكيف تكذبون ، وأخرج أيضا عن الحسن قال : أنى تصرفون .

وأخرج أيضا عن ابن عباس فى ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ قال : خلق الليل والنهار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : يعنى بالإصباح ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم : وأبو الشيخ عن مجاهد فى ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ قال : إضاءة الفجر . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **فالق الإصباح** ﴾ قال : فالق الصبح . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وجاعل الليل سكنا** ﴾ قال : سكن فيه كل طير ودابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والشمس والقمر حسبانا** ﴾ يعنى : عدد الأيام والشهور والسنين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر** ﴾ قال : يضل الرجل ، وهو فى الظلمة والجور عن الطريق . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر والخطيب فى كتاب النجوم عن عمر بن الخطاب قال : تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى بركم ، وبحركم ثم أمسكوا فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ،

ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر ثم انتهوا» .

وقد ورد فى استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث ، منها عند الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله » . وأخرج ابن شاهين والطبرانى والحاكم والخطيب عن عبد الله بن أبى أوفى قال : قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه (١) . وأخرج أحمد فى الزهد والخطيب عن أبى الدرداء نحوه (٢) . وأخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن أبى هريرة نحو حديثه الأول مرفوعًا . وأخرج الحاكم فى تاريخه ، والديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : التاجر الأمين ، والإمام المقتصد ، وراعى الشمس بالنهار» . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن سلمان الفارسى قال :سبعة فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر منهم الرجل الذى يراعى الشمس لمواقيت الصلاة (٣) . فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله والصلاة لا لغير ذلك .

وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس ، وأول صلاة الظهر زوالها ، ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية ، ووقت المغرب غروب الشمس ، وورد فى صلاة العشاء أن النبى ﷺ كان يصليها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر ، وبها يعرف أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها ، فمن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذى أراده ﷺ ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد .

وهكذا النجوم ، وورد النهى عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه والخطيب عن على قال : نهانى رسول الله ﷺ عن النظر فى النجوم .وأخرج ابن مردويه والمرهبى والخطيب عن أبى هريرة قال :نهى رسول الله ﷺ عن النظر فى النجوم . وأخرج الخطيب عن عائشة مرفوعاً مثله . وأخرج الطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والخطيب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا ذكر أصحابى فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا» (٤) .

---

(١) صححه الحاكم ١/ ٥١ ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى المجمع ١/ ٣٣٢ إلى الطبرانى فى الكبير والبزار ، وقال : « ورجاله موثقون لكنه معلول » كما رواه البيهقى فى الصلاة ١/ ٣٧٩ .

(٢) ابن المبارك فى الزهد (١٣٠٣) والبيهقى فى الصلاة ١/ ٣٧٩ والحاكم ١/ ٥١ .

(٣) أحمد فى الزهد (٨١٦) .

(٤) الطبرانى فى الكبير (١٠٤٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٠٥ ، ٢٢٦ : « وفيه مسهر بن عبد الملك ، وثقه ابن حبان وغيره ، وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » وأبو نعيم فى الحلية ترجمة شقيق بن سلمة ٤/ ١٠٨ ، وحكم عليه الشيخ الألبانى بالصحة فى السلسلة الصحيحة (٣٤) .

وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال ﷺ : « من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » [(١)] فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لماعدا الاهتداء والتفكر والاعتبار . وما ورد فى جواز النظر فى النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكر والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق ، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه :أنه سأل رجلا عن حساب النجوم ، فجعل الرجل يتحرج أن يخبره ، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول : علم عجز الناس عنه ووددت أنى علمته . وقد أخرج أبو داود والخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثًا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أما بعد ، فإن ناسًا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وإنهم قد كذبوا ، ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة » [(٢)] . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما فى كسوف الشمس والقمر عن النبى ﷺ : « إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بهما عباده » [(٣)] .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة مرفوعا : « إن الله نصب آدم بين يديه ، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذريته من صلبه حتى ملؤوا الأرض » فهذا الحديث هو معنى ما فى الآية ، ﴿ **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة**﴾ . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمستقر ومستودع** ﴾ قال : المستقر ما كان فى الرحم ، والمستودع ما استودع فى أصلاب الرجال والدواب . وفى لفظ : المستقر ما فى الرحم وعلى ظهر الأرض وبطنها مما هوحيّ ومما قد مات. وفى لفظ : المستقر : ما كان فى الأرض ، والمستودع ما كان فى الصلب . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى الآية قال : مستقرها فى الدنيا، ومستودعها فى الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : المستقر : الرحم ، والمستودع : المكان الذى يموت فيه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن وقتادة فى الآية قالا : مستقر فى القبر . ومستودع فى الدنيا أوشك أن يلحق بصاحبه .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **نخرج منه حبًا متراكبًا** ﴾ قال : هذا السنبل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **قنوان دانية** ﴾ قال : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . وأخرج ابن أبى حاتم

---

(١) ابن أبى شيبة فى الأدب (٥٦٩٨) وأبو داود فى الطب (٣٩٠٥) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٢٦) .

(٢) أحمد ٥/١٦ وأبو داود فى الصلاة (١١٨٤) والترمذى فى الصلاة (٥٦٢) وقال : " حسن صحيح " والنسائى فى صلاة الكسوف ٣/ ١٤٠ ، ١٤١ وابن ماجة فى الصلاة (١٢٦٤) كلهم أخرجه مختصراً عدا الإمام أحمد .

(٣) البخارى فى الكسوف (١٠٤٨) والنسائى ٣/ ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ وفى التفسير (٤٩١) .

وأبو الشيخ عنه قنوان : الكبائس . والدانية : المنصوبة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى ﴿**قنوان دانية**﴾ قال : تهدل العذوق من الطلع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **مشتبهاً وغير متشابه** ﴾ قال : متشابهًا ورقه مختلفًا ثمره. وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **انظروا إلى ثمره إذا أثمر** ﴾ قال : رطبه وعنبه . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء : ﴿ **وينعه** ﴾ قال : نضجه .

﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)** ﴾

هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم . قال النحاس : ﴿ **الجن** ﴾ المفعول الأول ، و﴿ **شركاء** ﴾ المفعول الثانى كقوله تعالى : ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾ [المائدة : ٢٠] ﴿ وجعلت له مالا ممدودا ﴾ [المدثر : ١٢] وأجاز الفراء : أن يكون الجن بدلا من شركاء ومفسراً له . وأجاز الكسائى رفع الجن بمعنى هم الجن ، كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : الجن ، وبالرفع قرأ يزيد بن أبى قطيب وأبو حيان ، وقرئ بالجر على إضافة شركاء إلى الجن للبيان . والمعنى : أنهم جعلوا شركاء لله فعبدوهم كما عبدوه ، وعظموهم كما عظموه . وقيل: المراد بالجن ها هنا : الملائكة لاجتنانهم ، أى استتارهم ، وهم الذين قالوا : الملائكة بنات الله . وقيل : نزلت فى الزنادقة الذين قالوا : إن الله تعالى وإبليس أخوان ، فالله خالق الناس والدواب ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب ، وروى ذلك عن الكلبى [(١)] ، ويقرب من هذا قول المجوس ، فإنهم قالوا : للعالم صانعان هما : الرب سبحانه ، والشيطان . وهكذا القائلون : كل خير من النور ، وكل شر من الظلمة ، وهم المانوية [(٢)] .

قوله : ﴿ **وخلقهم** ﴾ جملة حالية بتقدير قد ، أى وقد علموا أن الله خلقهم ، أو خلق ما جعلوه شريكا لله . قوله : ﴿ **وخرقوا له بنين وبنات** ﴾ قرأ نافع بالتشديد على التكثير لأن المشركين ادعوا أن الملائكة بنات الله ، والنصارى ادعوا أن المسيح ابن الله ، واليهود ادعوا أن عزيراً ابن الله ، فكثر ذلك من كفرهم فشدد الفعل لمطابقة المعنى . وقرأ الباقون بالتخفيف .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ١٢٦ .

(٢) زعيمهم مانى بن ماش ، ثنوى ، تنسب إليه هذه الطائفة كان فى الأصل مجوسيا ، فأحدث دينا ودعا إليه ، ورعم أن صانع العالم اثنان : أحدهما : فاعل الخير ، وثانيهما :فاعل الشر ، وهو ظلمة ، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا ، وهما مختلفان فى النفس والصورة ، متضادان فى الفعل والتدبير . راجع : الفرق بين الفرق ٢٧١ ، والملل والنحل ١/ ٢٤٤ .

وقرئ :« حرفوا » من التحريف أى زوروا ، قال أهل اللغة :معنى ﴿ **خرقوا** ﴾ اختلقوا ، وافتعلوا ، وكذبوا ، يقال : اختلق الإفك واخترقه وخرقه ، أو أصله من خرق الثوب : إذا شقه، أى اشتقوا له بنين وبنات . قوله : ﴿ **بغير علم** ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أى كائنين بغير علم ؛ بل قالوا ذلك عن جهل خالص ، ثم بعد حكاية هذا الضلال البين والبهت الفظيع من جعل الجن شركاء لله ، وإثبات بنين وبنات له نزه الله نفسه ، فقال : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يصفون** ﴾ وقد تقدم الكلام فى معنى ﴿ **سبحانه** ﴾ ومعنى ﴿ **تعالى** ﴾ تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذى وصفوه به .

قوله : ﴿ **بديع السموات والأرض** ﴾ أى مبدعهما ، فكيف يجوز أن ﴿ **يكون له ولد** ﴾ وقد جاء البديع بمعنى المبدع، كالسميع بمعنى المسمع كثيراً، ومنه قول عمرو بن معدى كرب[1]:

أمن رَيْحَانَةِ الدَّاعى السَّمِيع يُؤرقنى وأَصْحَابى هجوعُ

أى المسمع . وقيل : هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل ، والأصل : بديع سمواته وأرضه ، وأجاز الكسائى خفضه على النعت لله . والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ وخبره : ﴿ **أنى يكون له ولد** ﴾ . وقيل :هو مرفوع على أنه فاعل ﴿ **تعالى** ﴾، وقرئ بالنصب على المدح ، والاستفهام فى ﴿ **أنى يكون له ولد** ﴾ للإنكار والاستبعاد ، أى من كان هذا وصفه ، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما كيف يكون له ولد ؟ وهو من جملة مخلوقاته وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً . ثم بالغ فى نفى الولد ، فقال : ﴿ **ولم تكن له صاحبة** ﴾ أى كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة؟ والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد ، وجملة : ﴿ **وخلق كل شىء** ﴾ لتقرير ما قبلها ، لأن من كان خالقاً لكل شىء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً ﴿ **وهو بكل شىء عليم** ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى الأوصاف السابقة، وهو فى موضع رفع على الابتداء وما بعده خبر، وهو الاسم الشريف، و﴿ **ربكم** ﴾ خبر ثان ، و﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ خبر ثالث ، و﴿ **خالق كل شىء** ﴾ خبر رابع ، ويجوز أن يكون ﴿ **الله ربكم** ﴾ بدلا من اسم الإشارة ، وكذلك ﴿ **لا إله إلا هو خالق كل شىء** ﴾ خبراً لمبتدأ ، ويجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ ، وأجاز الكسائى والفراء النصب فيه . ﴿ **فاعبدوه** ﴾ أى من كانت هذه صفاته فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شىء .

قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ الأبصار : جمع بصر ، وهو الحاسة ، وإدراك الشىء :

---

(١) هو عمرو بن معدى كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدى ، فارس اليمن ، وصاحب الغارات المذكورة ، وفد على المدينة سنة ٩ هـ فى وفد من قومه فأسلم وأسلموا ، شهد اليرموك ، وفيها ذهبت إحدى عينيه ، توفى عام ٢١ هـ . راجع : الإصابة : (٥٩٧٠) وشرح الشواهد ١٤٣ .

عبارة عن الإحاطة به . قال الزجاج : أى لا تبلغ كنه حقيقته ، فالمنفى هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية . فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لاشك فيه ولا شبهة ، ولا يجهله إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيمًا ، وأيضًا قد تقرر فى علم البيان والميزان أن رفع الإيجاب الكلى سلب جزئى ، فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار ، وهى أبصار الكفار ، هذا على تسليم أن نفى الإدراك يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد به : هذه الرؤية الخاصة ، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب ، والأول تخلفه الجزئية ، والتقدير : لا تدركه كل الأبصار بل بعضها ، وهى أبصار المؤمنين . والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرفناك من تواتر الرؤية فى الآخرة ، واعتضادها بقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ [القيامة : ٢٢] الآية .

قوله : ﴿ **وهو يدرك الأبصار** ﴾ أى يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية ، وخص الأبصار ليجانس ما قبله . وقال الزجاج : فى هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار، أى لا يعرفون كيفية حقيقة البصر ، وما الشىء الذى صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . انتهى . ﴿ **وهو اللطيف** ﴾ أى الرفيق بعباده ، يقال: لطف فلان بفلان ، أى رفق به ، واللطف فى العمل الرفق به ، واللطف من الله التوفيق والعصمة ، وألطفه بكذا : إذا أبره . والملاطفة : المبارة ، هكذا قال الجوهرى وابن فارس، و﴿ **الخبير** ﴾ المختبر بكل شىء بحيث لا يخفى عليه شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم** ﴾ قال : والله خلقهم ﴿ **وخرقوا له بنين وبنات بغير علم** ﴾ قال : تخرّصوا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله :﴿ **وخرقوا** ﴾ قال :جعلوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كذبوا . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم والعقيلى وابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ قال : « لو أن الإنس والجن والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً » (١) . قال الذهبى : هذا حديث منكر. انتهى . وفى إسناده عطية العوفى وهو ضعيف . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه . قال عكرمة : فقلت له : أليس الله يقول : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ قال : لا أم لك ، ذاك نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شىء .

---

(١) العقيلى فى الضعفاء ١/ ١٤٠ وابن عدى فى الكامل ٢/ ١٠ وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٣/ ٧٤ ، ٧٥ وقال : « غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة » .

وفى لفظ : إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر [١] . وأخرج ابن جرير عنه قال : لا يحيط بصر أحد بالله . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى كتاب الرؤية عن الحسن فى قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ قال : فى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن إسماعيل بن علية مثله .

﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ من رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ من رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)** ﴾

البصائر : جمع بصيرة ، وهى فى الأصل : نور القلب ، والمراد بها هنا : الحجة البينة ، والبرهان الواضح . وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله ﷺ ، ولهذا قال فى آخره : ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ ووصف البصائر بالمجىء تفخيماً لشأنها وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه كما يقال : جاءت العافية ، وانصرف المرض ، وأقبلت السعود ، وأدبرت النحوس ﴿ **فمن أبصر فلنفسه** ﴾ أى فمن تعقل الحجة وعرفها وأذعن لها فنفع ذلك لنفسه ؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار ﴿ **ومن عمى** ﴾ عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها ، فضرر ذلك على نفسه ؛ لأنه يتعرض لغضب الله فى الدنيا ويكون مصيره النار ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ برقيب أحصى عليكم أعمالكم وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى وهو الحفيظ عليكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

﴿ **وكذلك نصرف الآيات** ﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع نصرفها فى الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه . قوله : ﴿ **وليقولوا درست** ﴾ العطف على محذوف ، أى نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . أو علة لفعل محذوف يقدر متأخرا ، أى وليقولوا درست صرفناها ، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة والمعنى : ومثل ذلك التصريف نصرف الآيات وليقولوا درست ، فإنه لا احتفال بقولهم ، ولا اعتداد بهم ، فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم ، وعدم الاكتراث بقولهم . وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج . وقال النحاس : وفى المعنى قول آخر حسن ، وهو أن يكون معنى ﴿ **نصرف الآيات** ﴾ نأتى بها آية بعد آية

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٧٩) وقال : « حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٥٧٧) والطبرانى (١١٦١٩) ، وصححه الحاكم ٢/٣١٦ وخالفه الذهبى حيث قال : « إبراهيم متروك » .

﴿ **وليقولوا درست** ﴾ علينا فينكرون الأول بالآخر ، فهذا حقيقته ، والذى قاله أبو إسحاق ، يعنى الزجاج ، مجاز .

وفى ﴿ **درست** ﴾ قراءات ، قرأ أبو عمرو وابن كثير : « دارست » بألف بين الدال والراء كفاعلت ، وهى قراءة على وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة . وقرأ ابن عامر : « درست » بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف كخرجت ، وهى قراءة الحسن . وقرأ الباقون « درست » كضربت ، فعلى القراءة الأولى المعنى : دارست، أهل الكتاب ودارسوك أى ذاكرتهم وذاكروك ، ويدل على هذا ما وقع فى الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله : ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ [الفرقان : ٤] أى أعان اليهود النبى ﷺ على القرآن ، ومثله قولهم : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ [الفرقان : ٥] قولهم :﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : ١٠٣] والمعنى على القراءة الثانية : قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت وهوكقولهم : ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ . والمعنى على القراءة الثالثة مثل المعنى على القراءة الأولى . قال الأخفش : هى بمعنى دارست إلا أنه أبلغ . وحكى عن المبرد أنه قرأ : « وليقولوا » بإسكان اللام فيكون فيه معنى التهديد ، أى وليقولوا ما شاؤوا فإن الحق بين ، وفى اللفظ أصله درس يدرس دراسة فهو من الدرس وهو القراءة . وقيل : من درسته، أى ذللته بكثرة القراءة وأصله درس الطعام ، أى داسه. والدياس : الدراس بلغة أهل الشام . وقيل : أصله من درست الثوب أدرسه درساً ، أى أخلقته ، ودرست المرأة درساً ، أى حاضت ، ويقال: إن فرج المرأة يكنى أبا دراس وهو من الحيض ، والدرس أيضا : الطريق الخفى . وحكى الأصمعى :بعير لم يدرس ، أى لم يركب . وروى عن ابن عباس وأصحابه وأبى وابن مسعود والأعمش أنهم قرؤوا : « درس » أى درس محمد الآيات ، وقرئ : « درِسَتْ » وبه قرأ زيد بن ثابت ، أى الآيات على البناء للمفعول ، و« دارست » أى دارست اليهود محمداً . واللام فى : ﴿ **لنبينه** ﴾ لام كى ، أى نصرف الآيات لكى نبينه لقوم يعلمون ، والضمير راجع إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن ، أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر ، لأنه معلوم من السياق ، أو إلى التبيين المدلول عليه بالفعل .

قوله : ﴿ **اتبع ما أوحى إليك من ربك** ﴾ أمره الله باتباع ما أوحى إليه وأن لا يشغل خاطره بهم بل يشتغل باتباع ما أمره الله ، وجملة :﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لقصد تأكيد إيجاب الاتباع ﴿ **وأعرض** ﴾ معطوف على ﴿ **اتبع** ﴾ أمره الله بالإعراض عن المشركين بعد ما أمره باتباع ما أوحى إليه ، وهذا قبل نزول آية السيف ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾ أى لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا ، وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه ، والكلام فى تقرير هذا على الوجه الذى يتعارف به أهل علم الكلام ، والميزان معروف فلا نطيل بإيراده ﴿ **وما جعلناك عليهم حفيظا** ﴾ أى رقيباً ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة .

قوله : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم** ﴾ الموصول عبارة عن الآلهة التى كانت تعبدها الكفار. والمعنى : لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التى يدعونها من دون الله فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدواناً وتجاوزًا عن الحق ، وجهلا منهم ، وفى هذه الآية دليل على أن الداعى إلى الحق ، والناهى عن الباطل ، إذا خشى أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم ، ومخالفة حق ، ووقوع فى باطل أشد كان الترك أولى به ؛ بل كان واجبًا عليه ، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس ، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه ، وتركوا غيره من المعروف . وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات عناداً للحق وبغضًا لاتباع المحقين وجراءة على الله سبحانه ، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف ، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة ، وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه ، كما يشاهد ذلك فى أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا فى كثير من الباطل ، وإذا أرشدوا إلى السنة قابلوها بما لديهم من البدعة [١] ، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع ، وهم شر من الزنادقة ؛ لأنهم يحتجون بالباطل ، وينتمون إلى البدع ، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين ، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام ، وتحاماهم أهله ، وقد ينفق كيدهم ، ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين ، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل ، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة وهى أصل أصيل فى سد الذرائع وقطع التطرق إلى الشبه . وقرأ أهل مكة : « عُدُوًّا » بضم العين والدال وتشديد الواو وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وقتادة . وقرأ من عَداهم بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو ، ومعنى القراءتين واحد ، أى ظلما وعدوانا ، وهو منتصب على الحال ، أو على المصدر ، أو على أنه مفعول له ﴿ **كذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾ أى مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من أمم الكفار عملهم من الخير والشر ﴿ يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ [فاطر : ٨] ﴿ **ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾ فى الدنيا من المعاصى التى لم ينتهوا عنها ولا قبلوا من المرسلين ما أرسل الله به إليهم ، وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **قد جاءكم بصائر** ﴾ أى بينة ﴿ **فمن أبصر فلنفسه** ﴾ أى فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴿ **ومن عمى** ﴾ أى من ضل ﴿ **فعليها** ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « دارست » وقال : قرأت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير

---

(١) فى المطبوعة : « البديعة » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه ﴿ **درست** ﴾ قال : قرأت وتعلمت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال : « دارست » خاصمت ، جادلت ، تلوْت .

وأخرج أبو الشيخ عن السدى : ﴿ **وأعرض عن المشركين** ﴾ قال : كف عنهم ، وهذا منسوخ ، نسخه القتال ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] . وأخرج ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾ يقول الله تبارك وتعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى بحفيظ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله** ﴾ قال : قالوا : يا محمد ، لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ **فيسبوا الله عدواً بغير علم** ﴾ (١) . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من سبّ والديه » قالوا : يارسول الله ، وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال :« يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسبّ أمه » (٢) .

﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾**

قوله : ﴿ **وأقسموا بالله** ﴾ أى الكفار مطلقاً ، أو كفار قريش ، وجهد الأيمان : أشدها ، أى أقسموا بالله أشد أيمانهم التى بلغتها قدرتهم ، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم ، فلهذا أقسموا به ، وانتصاب ﴿**جهد**﴾ على المصدرية ، وهو بفتح الميم : المشقة ، وبضمها : الطاقة ، ومن أهل اللغة من يجعلها لمعنى واحد ، والمعنى : أنهم اقترحوا على

---

(١) ابن جرير ٧/٢٠٧ .

(٢) الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهو عند : البخارى فى الأدب (٥٩٧٣) ومسلم فى الإيمان (٩٠/١٤٦) وأبو داود فى الأدب (٥١٤١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٠٢) وقال : «حسن صحيح».

النبى ﷺ آية من الآيات التى كانوا يقترحونها، وأقسموا لئن جاءتهم هذه الآية التى اقترحوها ﴿**ليؤمنن بها**﴾ وليس غرضهم الإيمان ؛ بل معظم قصدهم التحكم على رسول الله ﷺ ، والتلاعب بآيات الله ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بقوله : ﴿ **إنما الآيات عند الله** ﴾ هذه الآية التى يقترحونها وغيرها وليس عندى من ذلك شىء ، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها ، وإن أراد ألا ينزلها لم ينزلها . قوله : ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ . قرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة من « أنها » وهى قراءة مجاهد ، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود : « وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون » قال مجاهد وابن زيد : المخاطب بهذا المشركون ، أى وما يدريكم ، ثم حكم عليهم بقوله : ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ وقال الفراء وغيره :الخطاب للمؤمنين ، لأن المؤمنين قالوا للنبى ﷺ :يا رسول الله ، لونزلت الآية لعلهم يؤمنون ، فقال الله تعالى : ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ وقرأ أهل المدينة والأعمش وحمزة والكسائى وعاصم ، وابن عامر : ﴿ **أنها إذا جاءت** ﴾ بفتح الهمزة . قال الخليل: « أنها » بمعنى : لعلها ، وفى التنزيل : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ [عبس : ٣] أى أنه يزكى . وحكى عن العرب ائت السوق أنك تشترى لنا شيئاً ، أى لعلك ، ومنه قول عدى بن زيد :

أَعَاذِلُ مَا يُدْرِيكَ أَنَّ منيتى ... إلى ساعةٍ فى اليومِ أو فى ضُحَى الغَدِ

أى لعل منيتى ، ومنه قول دريد بن الصمة :

أرينى جواداً ماتَ هزلا لأَنَّنى ... أَرَى مَا تَرَين أَوْ بخيلا مخلدا

أى لعلنى ، وقول أبى النجم :

قُلْتُ لشَيْبَان ادنُ مِنْ لقَائِه ... أَنَّى نُغَدِّ اليوم من شوائه

أى لعلى ، وقول جرير :

هَلْ أَنْتُمْ عَائِجُون بِنا لأن ... نَرَى العَرَصَاتِ أو أَثَرَ الخِيَامِ

أى لعلنا .اهـ . وقد وردت فى كلام العرب كثيراً بمعنى : لعل ، وحكى الكسائى أنها كذلك فى مصحف أبى بن كعب . وقال الكسائى أيضا والفراء : إن « لا » زائدة والمعنى : وما يشعركم أنها ، أى الآيات ، إذا جاءت يؤمنون فزيدت كما زيدت فى قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : ٩٥] وفى قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد﴾ [الأعراف : ١٢] وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة « لا » وقالوا : هو غلط وخطأ . وذكر النحاس وغيره أن فى الكلام حذفاً والتقدير:أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع .

قوله : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ معطوف على : ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ قيل : والمعنى :

نقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار ، وحر الجمر ﴿ **كما لم يؤمنوا** ﴾ فى الدنيا ﴿ **ونذرهم** ﴾ فى الدنيا ، أى نمهلهم ولا نعاقبهم فعلى هذا بعض الآية فى الآخرة ، وبعضها فى الدنيا . وقيل : المعنى : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم فى الدنيا ، أى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ، أى يتحيرون ، والكاف فى : ﴿ **كما لم يؤمنوا** ﴾ نعت مصدر محذوف ، و« ما » مصدرية ، و﴿ **يعمهون** ﴾ فى محل نصب على الحال .

قوله : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة** ﴾ أى لا يؤمنون ولونزلنا إليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : ٨] ﴿ **وكلمهم الموتى** ﴾ الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم ، فقالوا لهم : إن هذا النبى صادق مرسل من عند الله فآمنوا به لم يؤمنوا ﴿ **وحشرنا عليهم كل شىء** ﴾ مما سألوه من الآيات ﴿ **قبلا** ﴾ أى كفلا وضمنا بما جئناهم به من الآيات البينات . هذا على قراءة من قرأ : ﴿ **قُبُلا** ﴾ بضم القاف وهم الجمهور . وقرأ نافع ، وابن عامر : « قبلا » بكسرها ، أى مقابلة . وقال محمد بن يزيد المبرد : ﴿ **قُبُلا** ﴾ بمعنى ناحية كما تقول : لى قبل فلان مال ، فقبلا نصب على الظرف ، وعلى المعنى الأول ورد قوله تعالى : ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ [الإسراء : ٩٢] أى يضمنون ، كذا قال الفراء . وقال الأخفش : هو بمعنى قبيل قبيل ، أى جماعة جماعة . وحكى أبو يزيد : لقيت فلانًا قبلا ومقابلة و قبلا كله واحد بمعنى المواجهة ، فيكون على هذا الضم كالكسر وتستوى القراءتان . والحشر : الجمع ﴿ **ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله** ﴾ إيمانهم ، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والاستثناء مفرغ ﴿ **ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ جهلا يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلى الصواب .

قوله : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى** ﴾ هذا الكلام لتسلية رسول الله ﷺ ودفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم ، أى مثل هذا الجعل ﴿ **جعلنا لكل نبى عدوا** ﴾ والمعنى كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار ، فجعلنا لكل واحد منهم عدواً من كفار زمنهم ، و﴿ **شياطين الإنس والجن** ﴾ بدل من ﴿ **عدوا** ﴾ . وقيل : هو المفعول الثانى لجعلنا . وقرأ الأعمش : « الجن والإنس » بتقديم الجن ، والمراد بالشياطين : المردة من الفريقين ، والإضافة بيانية أو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأصل : الإنس والجن : الشياطين ، وجملة ﴿ **يوحى بعضهم إلى بعض** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونه يوسوس بعضهم لبعض . وقيل : إن الجملة مستأنفة لبيان حال العدو ، وسمى وحياً ؛ لأنه إنما يكون خفية بينهم ، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه ، والمزخرف المزين وزخارف الماء : طرائفه ﴿ **وغروراً** ﴾ منتصب على المصدر ؛ لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض : يغرونهم بذلك غرورا ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون مفعولا له ،

والغرور : الباطل .

قوله : ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه** ﴾ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقًا من الأمور التى جرت من الكفار فى زمنه وزمن الأنبياء قبله ، أى لو شاء ربك عدم وقوع ما تقدم ذكره ما فعلوه وأوقعوه ، وقيل : ما فعلوا الإيحاء المدلول عليه بالفعل ﴿ **فذرهم** ﴾ أى اتركهم ، وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله: ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾ [المدثر :١١] ﴿ **وما يفترون** ﴾ إن كانت « ما » مصدرية فالتقدير : اتركهم وافتراءهم ، وإن كانت موصولة فالتقدير : اتركهم والذى يفترونه .

قوله : ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ اللام فى لتصغى لام كى فتكون علة كقوله : ﴿ **يوحى** ﴾ والتقدير : يوحى بعضهم إلى بعض لغرورهم ولتصغى . وقيل : هو متعلق بمحذوف يقدر متأخرا ، أى لتصغى ﴿ **جعلنا لكل نبى عدوا** ﴾ وقيل : إن اللام للأمر وهو غلط فإنها لوكانت لام الأمر جزمت الفعل ، والإصغاء : الميل ، يقال : صغوت أصغو صغوا وصغيت أصغى ويقال : صغيت بالكسر، ويقال : أصغيت الإناء : إذا أملته ليجتمع ما فيه ، وأصله : الميل إلى الشىء لغرض من الأغراض ، ويقال :صغت النجوم :إذا مالت للغروب ، وأصغت الناقة: إذا أمالت رأسها ، ومنه قول ذى الرمة :

نُصْغِى إذا شدَّهَا بِالكُور جَانحةً ... حَتَّى إذَا ما استَوى فى غَرْزِها تثِبُ

والضمير فى ﴿ **إليه** ﴾ لزخرف القول ، أو لما ذكر سابقًا من زخرف القول وغيره ، أى أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروهم ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ من الكفار ﴿ **وليرضوه** ﴾ لأنفسهم بعد الإصغاء إليه ﴿ **وليقترفوا ما هم مقترفون** ﴾ من الآثام ، والاقتراف : الاكتساب ، يقال : خرج ليقترف لأهله ، أى ليكتسب لهم ، وقَرف فلان هذا الأمر: إذا واقعه ، وقرفه : إذا رماه بالريبة ، واقترف : كذب ، وأصله : اقتطاع قطعة من الشىء .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ فى قريش ﴿ **وما يشعركم** ﴾ يأيها المسلمون ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : كلم رسول الله ﷺ قريشاً فقالوا : يا محمد ، تحبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها البحر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى ، وأن ثمود لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله ﷺ :« أى شىء تحبون أن آتيكم به ؟ » قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً ، قال : « فإن فعلت تصدقونى ؟ » قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاءه جبريل فقال له : إن شئت أصبح ذهبًا فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال : « بل يتوب تائبهم » ، فأنزل الله : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يجهلون** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ قال : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شىء وردّت عن كل أمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ **وحشرنا عليهم كل شىء قبلا** ﴾ قال : معاينة ﴿ **ما كانوا ليؤمنوا** ﴾ أى أهل الشقاء ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أى أهل السعادة والذين سبق لهم فى علمه أن يدخلوا فى الإيمان . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ **وحشرنا عليهم كل شىء قبلا** ﴾ أى فعاينوا ذلك معاينة. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : أفواجاً قبيلا .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن** ﴾ قال : إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، فيلتقى شيطان الإنس وشيطان الجن ، فيقول هذا لهذا : أضللته بكذا ، وأضلله بكذا ، فهو ﴿ **يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾ وقال ابن عباس : الجن : هم الجانّ وليسوا شياطين ، والشياطين : ولد إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس ، والجنّ يموتون ، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال : الكهنة : هم شياطين الإنس . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوحى بعضهم إلى بعض** ﴾ قال : شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس ، فإن الله يقول : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : من الإنس شياطين ، ومن الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس زخرف القول قال : يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوهم فى فتنتهم . وقد أخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ :« يا أباذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس » قال : يا نبى الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » (١) . وأخرج أحمد وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى ذر مرفوعا نحوه (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **ولتصغى** ﴾ لتميل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عنه : ﴿ **ولتصغى** ﴾ تزيغ ﴿ **وليقترفوا** ﴾ يكتسبوا .

---

(١) أحمد ٥/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ والطبرانى (٧٨٧١) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١١٨ : « وفيه على بن زيد وفيه كلام » وأورده ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٨٢ ، ٨٣ من طرق متعددة ومنها رواية ابن أبى حاتم وقال : « فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته » .

(٢) أحمد ٥/ ١٧٨ ، ١٧٩ والبيهقى فى الشعب (٣٢٩٨) وإسناده ضعيف . ورواه كذلك النسائى فى الاستعاذة ٨/ ٢٧٥ والبزار فى العلم (١٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٦٤ ، ١٦٥ : « وفيه المسعودى وهو ثقة ، ولكنه اختلط » .

﴿ أفغيرَ اللَّه أبْتغي حكَمًا وهُوَ الَّذي أنزلَ إليكُمُ الْكتابَ مُفصَّلاً وَالَّذينَ آتيناهُمُ الْكتابَ يعْلَمُون أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بالْحقِّ فلا تكُونَنَّ من الْمُمْتَرينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كلمتُ ربِّك صدْقًا وعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لكَلماته وهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ (١١٥) وإن تُطعْ أكْثَرَ مَن في الأَرْضِ يُضلُّوكَ عَن سَبيل اللَّه إن يتَّبعُون إلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلاَّ يخرُصُونَ (١١٦) إنَّ ربَّكَ هُوَ أعْلَمُ من يَضلُّ عَن سَبيله وهُوَ أعْلَمُ بالْمُهتَدين (١١٧) ﴾

قوله : ﴿ **أفغير الله** ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على فعل مقدر ، والكلام هو على إرادة القول ، والتقدير : قل لهم يا محمد: كيف أضل أو أبتغى غير الله حكمًا ؟ و« غير » مفعول لأبتغى مقدم عليه ، وحكمًا المفعول الثانى أو العكس . ويجوز أن ينتصب ﴿ **حكمًا** ﴾ على الحال ، والحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر فى مثل هذه الصفة المشتقة ، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه ، من أن يجعل بينه وبينهم حكمًا فيما اختلفوا فيه ، وإن الله هو الحكم العدل بينه وبينهم ، وجملة : ﴿ **وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كيف أطلب حكمًا غير الله ؛ وهو الذى أنزل عليكم القرآن مفصلا مبيناً واضحاً ، مستوفيا لكل قضية على التفصيل ؟ ثم أخبر نبيه ﷺ بأن أهل الكتاب وإن أظهروا الجحود والمكابرة فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله ، بما دلتهم عليه كتب الله المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء ، و﴿ **بالحق** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا ، أى متلبساً بالحق الذى لاشك فيه ولا شبهة ، ثم نهاه الله عن أن يكون من الممترين فى أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق ، أو نهاه عن مطلق الامتراء ، ويكون ذلك تعريضاً لأمته عن أن يمترى أحد منهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له ، أى فلا يكونن أحد من الناس من الممترين ، ولا يقدح فى ذلك كون الخطاب لرسول الله ﷺ ؛ فإن خطابه خطاب لأمته .

قوله : ﴿ **وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا** ﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿ **كلمة** ﴾ بالتوحيد ؛ وقرأ الباقون بالجمع ، والمراد بالكلمات : العبارات ، أو متعلقاتها من الوعد والوعيد . والمعنى : أن الله قد أتم وعده ووعيده فظهر الحق وانطمس الباطل . وقيل : المراد بالكلمة أو الكلمات : القرآن ، و﴿ **صدقًا وعدلا** ﴾ منتصبان على التمييز ، أو الحال على أنهما نعت مصدر محذوف ، أى تمام صدق وعدل ﴿ **لا مبدل لكلماته** ﴾ لاخلف فيها ولا مغير لما حكم به ، والجملة المنفية فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة ﴿ **وهو السميع** ﴾ لكل مسموع ﴿ **العليم** ﴾ بكل معلوم .

قوله : ﴿ **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من فى الأرض أضلوه ؛ لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين ، وهم الطائفة التى

لا تزال على الحق ولا يضرها خلاف من يخالفها ، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ (١) . وقيل : المراد بالأكثر : الكفار. وقيل : المراد بالأرض : مكة ، أى أكثر أهل مكة، ثم علل ذلك سبحانه بقوله : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن** ﴾ أى ما يتبعون إلا الظن الذى لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها تقربهم إلى الله ﴿ **وإن هم إلا يخرصون** ﴾ أى وما هم إلا يخرصون ، أى يحدسون (٢) ويقدرون ، وأصل الخرص : القطع ، ومنه خرص النخل يخرص : إذا حزره ليأخذ منه الزكاة ، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين منه . وإذا كان هذا حال أكثر من فى الأرض فالعلم الحقيقى هو عند الله ، فاتبع ما أمرك به ودع عنك طاعة غيره ، وهو العالم بمن يضل عن سبيله ومن يهتدى إليه . قال بعض أهل العلم : إن ﴿ **أعلم** ﴾ فى الموضعين بمعنى يعلم ، قال : ومنه قول حاتم الطائى :

فحالفَتْ طيٌّ مِنْ دُونِنا حَلِفًا ... واللَّه أَعْلَمُ مَاكُنَّا لَهُمْ خُوُلا

والوجه فى هذا التأويل أن أفعل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر ، فتكون « من » منصوبة بالفعل الذى جعل أفعل التفضيل نائباً عنه . وقيل : إن أفعل التفضيل على بابه والنصب بفعل مقدر . وقيل : إنها منصوبة بأفعل التفضيل ، أى إن ربك أعلم أى الناس يضل عن سبيله ، وقيل : فى محل نصب بنزع الخافض ، أى بمن يضل قاله بعض البصريين . وقيل : فى محل جر بإضافة أفعل التفضيل إليها .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **مفصلا** ﴾ قال : مبيناً . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **صدقًا وعدلا** ﴾ قال : صدقا فيما وعد ، وعدلا فيما حكم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **لا مبدل لكلماته** ﴾ قال : لا تبديل لشىء قاله فى الدنيا والآخرة لقوله : ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ [ق : ٢٩] . وأخرج ابن مردويه وابن النجار عن أنس عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا** ﴾ قال : « لا إله إلا الله » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى اليمان عامر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ، ولكل قوم صنم يعبدونه فجعل يأتيها صنما صنما ، ويطعن فى صدر الصنم بعصا ، ثم يعقره ، فكلما طعن صنما أتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسروه ، ويطرحوه خارجاً من المسجد ، والنبى ﷺ يقول : ﴿ **وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم** ﴾ .

---

(١) عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » رواه مسلم فى الإمارة (١٩٢٠/ ١٧٠) والترمذى فى الفتن (٢٢٢٩) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (١٠) .

(٢) الحدس : الظن والتخمين . اللسان ٦/ ٤٦ ، ٤٧ .

﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين (١١٨) وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين (١١٩) وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون (١٢٠)** ﴾

لما تقدم ذكر ما يصنعه الكفار فى الأنعام من تلك السنن الجاهلية ، أمر الله المسلمين بأن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه . وقيل : إنها نزلت فى سبب خاص وسيأتى ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم الله حلَّ إن كان مما أباح الله أكله . وقال عطاء : فى هذه الآية الآمر بذكر الله على الشراب والذبح ، وكل مطعوم ، والشرط فى ﴿ **إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾ للتهييج والإلهاب ، أى بأحكامه من الأوامر والنواهى التى من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ، والاستفهام فى ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه** ﴾ للإنكار ، أى ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك ؟ و الحال أن ﴿ **قد فصل لكم ما حرم عليكم** ﴾ أى بين لكم بياناً مفصلا يدفع الشك ويزيل الشبهة بقوله : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً** ﴾ إلى آخر الآية ، ثم استثنى فقال : ﴿ **إلا ما اضطررتم إليه** ﴾ أى من جميع ما حرمه عليكم ، فإن الضرورة تحلل الحرام ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة . قرأ نافع ويعقوب :« وقد فصل لكم ما حرم عليكم » بفتح الفعلين على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما على البناء للمفعول . وقرأ عطية العوفى : « فصل » بالتخفيف ، أى أبان وأظهر .

قوله : ﴿ **وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم** ﴾ هم الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما ، فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل كانوا يضلون الناس فيتبعونهم ولا يعلمون أن ذلك جهل وضلالة لا يرجع إلى شىء من العلم ، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه . والظاهر : ما كان يظهر كأفعال الجوارح . والباطن : ما كان لا يظهر كأفعال القلب . وقيل : ما أعلنتم وما أسررتم . وقيل : الزنا الظاهر ، والزنا المكتوم . وأضاف الظاهر والباطن إلى الإثم ؛ لأنه يتسبب عنهما ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على الله سبحانه .

وقد أخرج أبو داود ، والترمذى وحسنه ، والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبى ﷺ قالوا : إنا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ، فأنزل الله : ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ **فكلوا مما ذكر**

(١) أبو داود فى الأضاحى (٢٨١٩) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٩) وقال : «حسن غريب» وابن جرير ٨/ ١٥ والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩/ ٢٤٠ .

اسم الله عليه ﴾ فإنه حلال ﴿ **إن كنتم بآياته** ﴾ يعنى القرآن ﴿**مؤمنين**﴾ قال : مصدقين ﴿**وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه** ﴾ يعنى الذبائح ﴿ **وقد فصل لكم ما حرم عليكم** ﴾ يعنى ما حرم عليكم من الميتة ﴿ **وإن كثيراً** ﴾ يعنى من مشركى العرب ﴿ **ليضلون بأهوائهم بغير علم** ﴾ يعنى فى أمر الذبائح . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا ما اضطررتم إليه** ﴾ أى من الميتة والدم ولحم الخنزير .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **وذروا ظاهر الإثم** ﴾ قال : هو نكاح الأمهات والبنات ﴿ **وباطنه** ﴾ قال : هو الزنى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : الظاهر منه ﴿ لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ [النساء :٢٢] ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾الآية [النساء : ٢٣] ، والباطن : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : علانيته وسره .

﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)** ﴾

نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه .

وقد اختلف أهل العلم فى ذلك ، فذهب ابن عمر ونافع مولاه والشعبى وابن سيرين ، وهو رواية عن مالك وعن أحمد ابن حنبل ، وبه قال أبو ثور وداود الظاهرى : أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسى لهذه الآية . ولقوله تعالى فى آية الصيد : ﴿ **فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه** ﴾ ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه فى هذه الآية : ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ .

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة الأمر بالتسمية فى الصيد وغيره . وذهب الشافعى وأصحابه ، وهو رواية عن مالك ، ورواية عن أحمد : أن التسمية مستحبة لا واجبة ، وهو مروى عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء بن أبى رباح ، وحمل الشافعى الآية على من ذبح لغير الله وهو تخصيص للآية بغير مخصص ، وقد روى أبو داود فى المراسيل أن النبى ﷺ قال : « ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكر » [(١)] وليس فى هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية ، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبى ﷺ : إن قوماً يأتوننا بلحمان لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : « سموا أنتم وكلوا » [(٢)] يفيد أن التسمية عند

(١) أبو داود فى المراسيل (٣٧٨) عن الصلت السدوسى .

(٢) البخارى فى البيوع (٢٠٥٧) وفى الذبائح والصيد (٥٥٠٧) وفى التوحيد (٧٣٩٨) وأبو داود فى الأضاحى (٢٨٢٩) والدارمى فى الأضاحى ٢ / ٨٣ والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩ / ٢٣٩ والدارقطنى فى الصيد والذبائح (٩٩) .

الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح . وذهب مالك وأحمد فى المشهور عنهما وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه أن التسمية إن تركت نسيانا لم تضر ، وإن تركت عمدا لم يحلّ أكل الذبيحة ، وهو مروى عن على وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصرى وأبى مالك وعبدالرحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبى عبدالرحمن واستدلوا بما أخرج البيهقى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « المسلم إن نسى أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم اللّه وليأكله » (١) وهذا الحديث رفعه خطأ ، وإنما هو من قول ابن عباس . وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى : ﴿ ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] كما سبق تقريره ، وبقوله ﷺ :« رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » (٢) وأما حديث أبى هريرة الذى أخرجه ابن عدى ، أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ فقال النبى ﷺ : « اسم اللّه على كل مسلم » (٣) فهو حديث ضعيف قد ضعفه البيهقى وغيره .

قوله : ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ الضمير يرجع إلى « ما » بتقدير مضاف ، أى وإن أكل ما لم يذكر لفسق ، ويجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا ، أى فإن الأكل لفسق وقد تقدم تحقيق الفسق . وقد استدل من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير اللّه بقوله : ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقًا ؛ بل الفسق : الذبح لغير اللّه . ويجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه اللّه عليه غير ممتنع شرعًا ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ أى يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق ، المباينة للصواب ، قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم ﴿ **وإن أطعتموهم** ﴾ فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ﴿ **إنكم لمشركون** ﴾ مثلهم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : قال المشركون ، وفى لفظ : قال اليهود : لا تأكلوا مما قتل اللّه وتأكلوا مما قتلتم أنتم، فأنزل اللّه ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه** ﴾ (٤) . وأخرج ابن جرير

---

(١) البيهقى فى الصيد والذبائح ٩/ ٢٣٩ والدارقطنى فى الصيد والذبائح (٩٨).

(٢) الحديث من رواية ابن عباس عند ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٥) وابن حبان فى فضل الأمة (٧١٧٥) والدارقطنى فى النذور (٣٣) والطبرانى (١١٢٧٤) وفى الصغير ١/ ٢٧٠ والبيهقى فى الخلع والطلاق ٧/ ٣٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

تنبيه : تكرر هذا الحديث فى كتب الفقهاء والأصوليين بلفظ : « رفع عن أمتى » ، ولم نره بها فى الأحاديث المتقدمة عند جميع من أخرجه ، حيث إن لفظه : « إن اللّه تجاوز » ، وعند بعضهم : « إن اللّه وضع » . انظر : تلخيص الحبير ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٣ .

(٣) ابن عدى فى الكامل ٦/ ٣٨٥ ترجمة : مروان بن سالم الجزرى والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩/ ٢٤٠ .

(٤) أبو داود فى الأضاحى (٢٨١٨، ٢٨١٩) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٩) وقال: « حسن غريب » وابن =

والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : لما نزلت: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً ، فقالوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب يعنى الميتة فهوحرام ؟ فنزلت ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ قال :الشياطين من فارس وأولياؤهم من قريش [١] . وقد روى نحو ما تقدم فى حديث ابن عباس الأول من غير طريق .

وآخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا فى قوله :﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ قال : إبليس أوحى إلى مشركى قريش . وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله :﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال:﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ [المائدة : ٥] [٢] . وأخرج عبد بن حميد عن عبدالله بن يزيد الخطمى قال : كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه . وروى ابن أبى حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس فى النسخ .

﴿ أو مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلْنا لهُ نُورًا يَمْشِي به في النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾

قوله : ﴿ أو من كان ميتًا فأحييناه ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام ، وقرأ نافع وابن أبى نعيم بإسكانها، قال النحاس : يجوز أن يكون محمولاً على المعنى ، أى انظروا وتدبروا ﴿ أفغير[٣] اللّه أبتغى حكمًا ﴾ . ﴿ أوَ مَن كان ميتا فأحييناه ﴾ والمراد بالميت هنا : الكافر، أحياه الله بالإسلام . وقيل : معناه : كان ميتًا حين كان نطفة ، فأحييناه بنفخ الروح فيه ، والأول أولى ؛ لأن السياق يشعر بذلك لكونه فى تنفير المسلمين عن اتباع المشركين ،

= ماجة فى الذبائح (٣١٧٣) والنحاس فى ناسخه ص ١٧٨ والطبرانى (١٢٢٩٥) وصححه الحاكم ٤/ ١١٣، ٢٣١، ٢٣٣ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الصيد والذبائح ٩ / ٢٤٠ ، ٢٤١.

تنبيه : فى بعض الروايات : جاءت اليهود إلى النبى ﷺ قال ابن كثير تعليقا على هذه الرواية ٣/ ٩١ ، ٩٢ : « وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة : أحدها : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا . الثانى : أن الآية من الأنعام وهى مكية . الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذى عن محمد بن موسى الجرسى عن زياد ابن عبدالله البكائى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ورواه الترمذى بلفظ : آتى ناس النبى ﷺ ، فذكره » .

(١) ابن جرير ٨/ ١٢ ، ١٣ والطبرانى (١١٦١٤) . (٢) أبو داود فى الأضاحى (٢٨١٧) .

(٣) فى المطبوعة : « أغير » .

وكثيرًا ما تستعار الحياة للهداية والعلم ، ومنه قول القائل :

وفى الجهل قَبْلَ الموتِ موتٌ لأهله فأجسَامُهم قَبْلَ القُبُورِ قُبورُ

وإن امرَأ لم يَحْيَ بالعلمْ مَيّتٌ فليس له حتى النشور نُشُورُ

والنور : عبارة عن الهداية والإيمان . وقيل : هو القرآن . وقيل : الحكمة . وقيل : هو النور المذكور فى قوله تعالى : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [الحديد : ١٢] والضمير فى « به » راجع إلى النور ﴿ **كمن مثلُه فى الظلمات** ﴾ أى كمن صفتُه فى الظلمات، ومثله مبتدأ ، والظلمات خبره ، والجملة صفة لمن . وقيل : مَثل زائدة ، والمعنى : كمن فى الظلمات كما تقول : أنا آكرم من مثلك ، أى منك ، ومثله : ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ [المائدة : ٩٥] ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ [الشورى : ١١] . وقيل : المعنى كمن مثله مثل من هو فى الظلمات ، و﴿ **ليس بخارج منها** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال .

قوله :﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ﴾ أى مثل ذلك الجعل جعلنا فى كل قرية . والأكابر :جمع أكبر، قيل : هم الرؤساء والعظماء وخصهم بالذكر؛ لأنهم أقدر على الفساد ، والمكر : الحيلة فى مخالفة الاستقامة، وأصله: الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة ، أى يصرف عنها ﴿ **وما يمكرون إلا بأنفسهم** ﴾ أى وبال مكرهم عائد عليهم ﴿ **وما يشعرون** ﴾ بذلك لفرط جهلهم ﴿ **وإذا جاءتهم آية** ﴾ من الآيات ﴿ **قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتى مِثْلَ ما أوتى رُسلُ اللّه** ﴾ يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء ، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ، ونظيره :﴿ يريد كل امرئ منهم أن يُؤتى صحفًا منشرة ﴾ [المدثر : ٥٢] والمعنى : إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة ، فأجاب اللّه عنهم بقوله : ﴿ **اللّه أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ أى إن اللّه أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولاً ، ويكون موضعًا لها ، وأمينًا عليها ، وقد اختار أن يجعل فى محمد صفيه وحبيبه ، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم ، ثم توعدهم بقوله : ﴿ **سيصيب الذين أجرموا صغار** ﴾ أى ذل وهوان ، وأصله من الصغر كأن الذلّ يصغر إلى المرء نفسه. وقيل : الصغار : هو الرضا بالذل ، روى ذلك عن ابن السكيت .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **أَوَ مَنْ كان ميتًا فَأحييْنَاه** ﴾ قال : كان كافرًا ضالاً فهديناه ﴿ **وجعلنا له نورًا** ﴾ هو القرآن ﴿ **كمن مثلُه فى الظلمات** ﴾ الكفر والضلالة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى عمار بن ياسر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو مَن كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس** ﴾ يعنى عمر بن الخطاب ﴿ **كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ يعنى أبا جهل بن هشام . وأخرج ابن

المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى الآية قال : نزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام كانا ميتين فى ضلالتهما فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزه ، وأقر أبا جهل فى ضلالته وموته، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال : « اللهم أعزَّ الإسلام بأبى جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب » (١) .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها** ﴾ قال : نزلت فى المستهزئين (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ﴿ **أكابر مجرميها** ﴾ عظماءها .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وإذا جاءتهم آية** ﴾ الآية قال : قالوا لمحمد حين دعاهم إلى مادعاهم إليه من الحق : لو كان هذا حقًا لكان فينا من هو أحق أن يؤتى به من محمد ﴿ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿**سيصيب الذين أجرموا** ﴾ قال : أشركوا ﴿ **صَغَار** ﴾ قال : هَوان .

﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)** ﴾

قوله : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ الشرح : الشق ، وأصله : التوسعة ، وشرحت الأمر : بينته وأوضحته ، والمعنى : مَن يُرد الله هدايته للحق يوسع صدره ، حتى يقبله بصدر منشرح ، ﴿ **ومَن يُرد** ﴾ إضلاله ﴿ **يجعل صدره ضيقًا حرجًا** ﴾ . قرأ ابن كثير: « ضيقًا » بالتخفيف مثل هين ولين . وقرأ الباقون بالتشديد وهما لغتان ، وقرأ نافع: « حرجا » بالكسر ، ومعناه : الضيق ،كرر المعنى تأكيدًا ، وحسن ذلك اختلاف اللفظ. وقرأ الباقون بالفتح ، جمع حرجة وهى شدة الضيق ، والحرجة الغليظة ، والجمع حرج

---

(١) الحديث من رواية عبدالله بن عمر عند أحمد ٢/ ٩٥ والترمذى فى المناقب (٣٦٨١) وقال : « حسن صحيح غريب » وابن حبان فى إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (٦٨٤٢) .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٩ .

وحرجات ، ومنه : فلان يتحرج ، أى يضيق على نفسه . وقال الجوهرى : مكان حرج وحرج، أى ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية ، والحرج : الإثم . وقال الزجاج : الحرج أضيق الضيق . وقال النحاس : حرج : اسم الفاعل وحرج مصدر وصف به كما يقال : رجل عدل .

قوله : ﴿ **كأنما يصَّعَّد فى السماء** ﴾ . قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود ، شبه الكافر فى ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء . وقرأ النخعى : « يصاعد » وأصله : يتصاعد . وقرأ الباقون : ﴿ **يصعد** ﴾ بالتشديد وأصله : يتصعد ، ومعناه : يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة ،كما يتكلف مَنْ يريد الصعود إلى السماء . وقيل : المعنى على جميع القراءات : كاد قلبه يصعد إلى السماء نبواً على الإسلام . و« ما » فى ﴿ **كأنما** ﴾ هى المهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية . قوله : ﴿ **كذلك يجعلُ الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾ أى مثل ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر ضيِّقًا حرجًا يجعل اللّه الرجس . والرجس فى اللغة: النتْن . وقيل : هو العذاب . وقيل : هو الشيطان يسلطه اللّه عليهم . وقيل : هو ما لا خير فيه. والمعنى الأول هو المشهور فى لغة العرب ، وهو مستعار لما يحل بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعانى المذكورة . والإشارة بقوله : ﴿ **وهذا صراط ربك** ﴾ إلى ما عليه النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين ، أى هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه . وقيل : الإشارة إلى ما تقدم مما يدل على التوفيق والخذلان ، أى هذا هو عادة اللّه فى عباده يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وانتصاب ﴿ **مستقيمًا** ﴾ على الحال كقوله تعالى :﴿ وهو الحق مصدقا ﴾ [البقرة:٩١] ﴿ وهذا بعلى شيخا ﴾ [هود : ٧٢] ﴿ **قد فصلنا الآيات** ﴾ أى بيناها وأوضحناها ﴿ **لقوم يذكرون** ﴾ ما فيها ويتفهمون معانيها . ﴿ **لهم دار السلام عند ربهم** ﴾ أى لهؤلاء المتذكرين الجنة ؛ لأنها دار السلام من كل مكروه ، أو دار الرب السلام مدخرة لهم عند ربهم يوصلهم إليها ﴿ **وهو وليهم** ﴾ أى ناصرهم ، والباء فى﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ للسببية ، أى بسبب أعمالهم .

قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعًا** ﴾ الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدما ، أى واذكر يوم نحشرهم أو ﴿**ويوم نحشرهم** ﴾ نقول : ﴿ **يا معشر الجن** ﴾ ، والمراد :حشر جميع الخلق فى القيامة ، والمعشر:الجماعة ، أى يوم الحشر نقول:ياجماعة الجن ﴿ **قد استكثرتم من الإنس** ﴾ أى من الاستمتاع بهم كقوله : ﴿ **ربنا استمتع بعضنا ببعض** ﴾ . وقيل : استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا فى حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم ، ومثل قوله:استكثر الأمير من الجنود ، والمراد : التقريع والتوبيخ ، وعلى الأول فالمراد بالاستمتاع : التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم ﴿ **وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض** ﴾ أما استمتاع الجن بالإنس : فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم ، وأما استمتاع الإنس بالجن : فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصى فوقعوا فيها وتلذذوا بها ، فذلك هو

استمتاعهم بالجن. وقيل : استمتاع الإنس بالجن : أنه كان إذا مر الرجل بواد فى سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ برب هذا الوادى من جميع ما أحذر ، يعنى ربه من الجن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهَقا ﴾ [الجن: ٦]. وقيل : استمتاع الجن بالإنس : أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة ، واستمتاع الإنس بالجن : أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب ، وينالون بذلك شيئًا من حظوظ الدنيا كالكهان ﴿ **وبلغنا أجلنا الذى أجَّلْتَ لنا** ﴾ أى يوم القيامة اعترافًا منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذبون به . ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم فقال : ﴿ **النار مثواكم** ﴾ أى موضع مقامكم . والمثوى : المقام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر .

قوله : ﴿ **خالدين فيها إلا ما شاء الله** ﴾ المعنى الذى تقتضيه لغة العرب فى هذا التركيب أنهم يخلدون فى النار فى كل الأوقات إلا فى الوقت الذى يشاء الله عدم بقائهم فيها . وقال الزجاج : إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة، أى خالدين فى النار الإ ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدّتهم فى الحساب ، وهو تعسف ؛ لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ، ولا يصدق على من لم يدخل النار. وقيل : الاستثناء راجع إلى النار ، أى إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها فى بعض الأوقات كالزمهرير . وقيل : الاستثناء لأهل الإيمان ، و« ما » بمعنى من ، أى إلا ما شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار . وقيل : المعنى : إلا ما شاء الله من كونهم فى الدنيا بغير عذاب. وكل هذه التأويلات متكلفة ، والذى ألجأ إليها ما ورد فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار فى النار أبدًا، ولكن لا تعارض بين عام وخاص ، لاسيما بعد وروده فى القرآن مكررا كما سيأتى فى سورة هود ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعَّال لما يريد ﴾ [هود : ١٠٧] ولعلَّه يأتى هنالك إن شاء الله زيادة تحقيق .

وقد أخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبدالرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى جعفر المدائنى ، رجل من بنى هاشم ، وليس هو محمد بن على، قال :سئل النبى ﷺ عن هذه الآية ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له » قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » (١) وأخرج عبد بن حميد عن فضيل نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وابن جرير وأبوالشيخ والحاكم وابن مردويه،

(١) ابن المبارك فى الزهد (٣١٥) وابن أبى شيبة فى الزهد (١٦١٦١) وابن جرير ٨/ ٢٠، ٢١ والبيهقى فى الأسماء والصفات١/ ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ حين نزلت هذه الآية ، فذكر نحوه [١] . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعًا من طريق أخرى . وأخرجه سعيد ابن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن النجار فى تاريخه عن عبد اللّه بن المستورد [٢] وكان من ولد جعفر بن أبى طالب قال : تلا رسول اللّه ﷺ هذه الآية ، فذكر نحوه [٣] وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، والمتصل يقوى المرسل [٤]، فالمصير إلى هذا التفسير النبوى متعين .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله اللّه فى قلبه . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى الآية يقول : من أراد أن يضله يضيق عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقا ، والإسلام واسع وذلك حين يقول :﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] يقول : ما جعل عليكم فى الإسلام من ضيق [٥] .

وأخرج عبدالرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **دار السلام** ﴾ قال : الجنة. وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن زيد قال : السلام هو اللّه . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال: اللّه هو السلام ، وداره الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قد استكثرتم من الإنس** ﴾ يقول : من ضلالتكم إياهم، يعنى أضللتم منهم كثيرًا ، وفى قوله :﴿ **خالدين فيها إلا ما شاء اللّه** ﴾ قال : إن هذه الآية لا ينبغى لأحد أن يحكم على اللّه فى خلقه ، لا ينزلهم جنة ولا نارا .

﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن** ﴾

(١) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦١٦٢) وابن جرير ٨/ ٢١ وسكت عنه الحاكم ٤/ ٣١١ وقال الذهبى : «عدى ساقط » والبيهقى فى الشعب (١٠٥٥٢) ط . الكتب العلمية .

(٢) فى المخطوطة : « المستورد » ، وعند ابن جرير والبيهقى والسيوطى فى الدر المنثور: « المسور » .

(٣) ابن جرير ٨/ ٢١ والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٥٨ وقال : « هذا منقطع » .

(٤) انظر : ابن كثير ٣/ ٩٨ ، وقد علق الشيخ الألبانى على قول ابن كثير بقوله : « وهذا من أوهامه رحمه اللّه تعالى، فإن طريقه الأولى معضلة مع كذب الذى أعضله ، والثانية منقطعة ، مع ضعف أحد رواته ، والثالثة معضلة أيضا مع ضعف أحد رواته ، فأين الطريق المتصلة ؟ » .

ثم قال: «وجملة القول: أن هذا الحديث ضعيف لايطمئن القلب لثبوته عن رسول اللّه ﷺ لشدة الضعف الذى فى جميع طرقه ، وبعضها أشد ضعفا من بعض ، فليس فيها ماضعفه يسير يمكن أن ينجبر». انظر: السلسلة الضعيفة (٩٦٥) .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٥٧ .

رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾

قوله : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا** ﴾ أى مثل ما جعلنا بين الجن والإنس ما سلف ﴿ **كذلك نولى بعض الظالمين بعضا** ﴾ والمعنى : نجعل بعضهم يتولى البعض فيكونون أولياء لبعضهم بعضًا ، ثم يتبرأ بعضهم من البعض ، فمعنى نولى على هذا : نجعله وليًا له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : معناه : نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس ، وروى عنه أيضًا أنه فسر هذه الآية بأن المعنى : نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله ، فيكون فى الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالمًا آخر . وقال فضيل بن عياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجبا [1] . وقيل : معنى نولى: نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر ، والباء فى ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ للسببية، أى بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضا .

قوله : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ أى يوم نحشرهم نقول لهم : ﴿ **ألم يأتكم** ﴾ أو هو شروع فى حكاية ما سيكون فى الحشر، وظاهره أن الله يبعث فى الدنيا إلى الجن رسلاً منهم ، كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم . وقيل : معنى منكم : أى ممن هو مجانس لكم فى الخلق والتكليف ، والقصد بالمخاطبة ، فإن الجن والإنس متحدون فى ذلك ، وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجن من تلك الحيثية . وقيل : إنه من باب تغليب الإنس على الجن كما يغلب الذكر على الأنثى . وقيل : المراد بالرسل إلى الجن ها هنا : هم النذر منهم ، كما فى قوله : ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ [الأحقاف : ٢٩] . قوله : ﴿ **يقصون عليكم آياتى** ﴾ صفة أخرى لرسل ، وقد تقدم بيان معنى القص . قوله : ﴿ **قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بإرسال رسله إليهم ، والجملة جواب سؤال مقدّر فهى مستأنفة ، وجملة : ﴿ **وغرتهم الحياة الدنيا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو هى جملة معترضة ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا بالرسل المرسلين إليهم ، والآيات التى جاؤوا بها ، وقد تقدم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصرّحة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم ، ومثل قولهم :﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] محمول على أنهم يقرون فى بعض مواطن يوم القيامة وينكرون فى موطن آخر لطول ذلك اليوم ، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول ، وانغلاق الأفهام وتبلد الأذهان .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم . وأن

---

(١) وفى الخبر عن النبى ﷺ : « من أعان ظالمًا سلطه الله عليه » .

فى : ﴿ **أن لم يكن ربك مهلك القرى** ﴾ هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، والمعنى : ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ، أو هى المصدرية ، والباء فى ﴿ **بظلم** ﴾ سببية، أى لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم ، والحال أن أهلها غافلون لم يرسل اللّه إليهم رسولاً ، والمعنى : أن اللّه أرسل الرسل إلى عباده ؛ لأنه لايهلك من عصاه بالكفر من القرى، والحال أنهم غافلون على الأعذار والإنذار بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم ، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] وقيل : المعنى : ما كان اللّه مهلك أهل القرى بظلم منه ، فهو سبحانه يتعالى عن الظلم بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء ؛ وقيل : المعنى : أن اللّه لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم من كون الآخرين غافلين عن ذلك ، فهو مثل قوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ٦٤] .

﴿ **ولكل درجات مما عملوا** ﴾ أى لكل من الجن والإنس درجات متفاوتة مما عملوا فنجازيهم بأعمالهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ [الأحقاف : ١٩] وفيه دليل على أن المطيع من الجن فى الجنة ، والعاصى فى النار ﴿ **وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ من أعمال الخير والشر ، والغفلة ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره ، قرأ ابن عامر : « تعملون » بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج عبدالرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا** ﴾ قال : يولى اللّه بعض الظالمين بعضًا فى الدنيا يتبع بعضهم بعضا فى النار . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن زيد فى الآية مثل ما حكينا عنه قريبًا . وأخرج أبو الشيخ عن الأعمش فى تفسير الآية قال : سمعتهم يقولون إذا فسد الزمان أمَّر عليهم شرارهم . وأخرج الحاكم فى التاريخ ، والبيهقى فى الشعب من طريق يحيى بن هاشم ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كما تكونون كذلك يؤمَّر عليكم » (١) . قال البيهقى : هذا منقطع ويحيى ضعيف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **رسل منكم** ﴾ قال : ليس فى الجن رسل ، وإنما الرسل فى الإنس ، والنذارة فى الجن ، وقرأ ﴿ فلما قضى ولَّوا إلى قومهم منذرين ﴾ [الأحقاف : ٢٩] . وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ فى العظمة ، أيضا عن ليث بن أبى سليم قال : مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار، وذلك أن اللّه أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده ولا يعيد ولده . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضًا عن ابن عباس قال : الخلق أربعة فخلق فى الجنة كلهم ، وخلق فى النار كلهم ، وخلقان فى الجنة والنار، فأما

(١) البيهقى فى الشعب (٧٣٩١) ط : الكتب العلمية .

الذين فى الجنة كلهم فالملائكة ، وأما الذين فى النار كلهم فالشياطين ، وأما الذين فى الجنة والنار فالإنس والجن ، لهم الثواب وعليهم العقاب .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾

قوله : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ أى عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم ، ولا يضره كفرهم ، ومع كونه غنيًا عنهم ، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعا من رحمته لهم ، وما أحسن هذا الكلام الربانى وأبلغه ، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة فى هذا المقام ، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هى غاية التفضل والتطول ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضى إلى الهلاك ويستخلف من بعد إهلاككم ما يشاء من خلقه ممن هو أطوع له وأسرع إلى امتثال أحكامه منكم ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية، أى ويستخلف استخلافًا مثل إنشائكم من ذرية قوم آخرين ، قيل : هم أهل سفينة نوح ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم ، ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ، ولطفا بهم ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ ﴾ من البعث والمجازاة ﴿ لآت ﴾ لا محالة فإن الله لايخلف الميعاد ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى بفائتين عما هو نازل بكم ، وواقع عليكم : يقال: أعجزنى فلان ، أى فاتنى وغلبنى .

قوله : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ المكانة : الطريقة ، أى اثبتوا على ما أنتم عليه، فإنى غير مبال بكم ولامكترث بكفركم ، إنى ثابت عَلَى ما أنا عليه ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وهذا وعيد شديد ، فلا يرد ما يقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر : و﴿ عاقبة الدار ﴾ هى العاقبة المحمودة التى يحمد صاحبها عليها ، أى من له النصر فى دار الدنيا ، ومن له وراثة الأرض ومَن له الدار الآخرة . وقال الزجاج : معنى مكانتكم : تمكنكم فى الدنيا ، أى اعملوا على تمكنكم من أمركم . وقيل : على ناحيتكم . وقيل : على موضعكم . قرأ حمزة والكسائى : « من يكون » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية . والضميرفى ﴿ إِنَّه لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ ﴾ للشأن ، أى لا يفلح من اتصف بصفة الظلم ،

وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم .

قوله : ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا** ﴾ هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وتأثيرهم لآلهتهم على الله سبحانه، أى جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيبًا ، ولآلهتهم نصيبًا من ذلك ، يصرفونه فى سدنتها والقائمين بخدمتها ، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه فى ذلك عوضوا عنه ماجعلوه لله، وقالوا : الله غنى عن ذلك ، والزعم الكذب . قرأ يحيى بن وثاب والسلمى والأعمش والكسائى : « بزعمهم » بضم الزاى، وقرأ الباقون بفتحها ، وهما لغتان ﴿ **فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ أى إلى المصارف التى شرع الله الصرف فيها كالصدقة، وصلة الرحم، وقرى الضيف ﴿ **وما كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ** ﴾ أى يجعلونه لآلهتهم وينفقونه فى مصالحها ﴿ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ أى ساء الحكم حكمهم فى إيثار آلهتهم على الله سبحانه . وقيل : معنى الآية : أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم ، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله ، فهذا معنى الوصول إلى الله ، والوصول إلى شركائهم ، وقد قدمنا الكلام فى ذرأ .

قوله : ﴿ **وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ** ﴾ أى ومثل ذلك التزيين الذى زينه الشيطان لهم فى قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم ، زين لهم قتل أولادهم . قال الفراء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان . وقيل : هم الغواة من الناس . وقيل : هم الشياطين ، وأشار بهذا إلى الوأد، وهو دفن البنات مخافة السبى والحاجة . وقيل : كان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور ليَنحرَنّ أحدهم كما فعل عبدالمطلب. قرأ الجمهور : ﴿ **زَيَّنَ** ﴾ بالبناء للفاعل ونصب ﴿ **قتلَ** ﴾ على أنه مفعول زيَّن ، وجر أولاد بإضافة قتل إليه، ورفع شركاؤهم على أنه فاعل زين ، وقرأ الحسن بضم الزاى ورفع قتل وخفض أولاد ، ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل ، ورفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه ، أى زينه شركاؤهم ، ومثله قول الشاعر :

لِيُبْكِ يَزِيدٌ ضَارِعٌ لِخصومةٍ ... وَمُخْتَبِطٌ مَا تَطِيح الطَوَائِحُ

أى يبكيه ضارع ، وقرأ ابن عامر وأهل الشام بضم الزاى ، ورفع قتل ، ونصب أولاد ، وخفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم ، ومعموله أولادهم ، ففيه الفصل بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول ، ومثله فى الفصل بين المصدر وما أضيف إليه قول الشاعر:

تَمُرُ عَلَى مَا تَسْتَمِرِ وقَدْ شَفَتْ ... غَلائِلُ عبدُ القيس منها صُدُورِها

بجر صدورها ، والتقديذ : شفت عبد القيس غلائل صدورها . قال النحاس : إن هذه القراءة لا تجوز فى كلام ولا فى شعر ، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف فى الشعر لاتساعهم فى الظروف ، وهو أى الفصل بالمفعول به فى الشعر بعيد ،

فإجازته فى القرآن أبعد ، وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى :إن قراءة ابن عامر لا تجوز فى العربية وهى زلة عالم ، وإذا زلَّ العالم لم يجز اتباعه وردّ قوله إلى الإجماع ، وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ، كقول الشاعر :

كما خُطَّ الكِتابُ بكفِّ يومًا يَهودِيٍّ يُقَارِبُ أو يُزِيلُ

وقول آخر :

لِلَّه دَرُّ اليْومَ مَن لامَها

وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة : إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبى ﷺ فهى فصيحة لا قبيحة. قالوا : وقد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان رضى اللّه عنه « شركايهم » بالياء .

وأقول : دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعتبرين كما بينا ذلك فى رسالة مستقلة ، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوى فقراءته ردّ عليه ، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل فى النظم كما قدمنا ، وكقول الشاعر :

فَزَجَجْتُها بِمَزجّة زَجَّ القَلوصَ أبى مَزَادَه

فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها ، وفى الآية قراءة رابعة وهى جر الأولاد والشركاء ، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاءهم فى النسب والميراث . قوله : ﴿ **ليردوهم** ﴾ اللام لام كى ، أى لكى يردوهم ، من الإرداء وهو الإهلاك ﴿ **وليلبسوا عليهم دينهم** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ولخلط دينهم عليهم ﴿ **ولو شاء الله ما فعلوه** ﴾ أى لو شاء الله عدم فعلهم ما فعلوه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وإذا كان ذلك بمشيئة الله ﴿ **فذرهم وما يفترون** ﴾ فدعهم وافتراءهم فذلك لا يضرك .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبان بن عثمان قال : الذرية الأصل ، والذرية النسل . وأخرجا أيضا عن ابن عباس ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ قال : بسابقين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **على مكانتكم** ﴾ قال : على ناحيتكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وجعلوا لله** ﴾ الآية . قال : جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيبًا ، وللشيطان والأوثان نصيبًا ، فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله فى نصيب الشيطان تركوه ، وإن سقط مما جعلوه للشياطين فى نصيب الله ردّوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سقى ما جعلوه لله فى نصيب الشيطان تركوه ، وإن انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان فى نصيب الله نزحوه ، فهذا ما جعلوا لله من الحرث وسقى الماء ، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله:﴿ ما جعل الله من بحيرة ﴾ الآية [المائدة : ١٠٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال :جعلوا لله مما ذرأ من الحرث جزءًا أو

لشركائهم جزءًا ، فما ذهب به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه ، وقالوا : الله عن هذا غنى ، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه ، والأنعام التى سموا لله : البحيرة والسائبة .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم** ﴾ قال : شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خوف العيلة [1] .

﴿ **وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)** ﴾

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم ، والحجر بكسر أوله وسكون ثانية فى قراءة الجمهور ، وقرأ أبان بن عثمان : « حجر » بضم الحاء والجيم ، وقرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وإسكان الجيم ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير : « حرج » بتقديم الراء على الجيم وكذا هو فى مصحف أُبى ، وهو من الحرج ، يقال : فلان يتحرج ، أى يضيق على نفسه الدخول فيما يشتبه عليه ، والحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول : أى محجور ، وأصله المنع ، فمعنى الآية : هذه أنعام وحرث ممنوعة يعنون أنها لأصنامهم ، لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم وهم خدام الأصنام ، والقسم الثانى قولهم : ﴿ **وأنعام حرمت ظهورها** ﴾ وهى البحيرة والسائبة والحام . وقيل :إن هذا القسم الثانى مما جعلوه لآلهتهم أيضا . والقسم الثالث :﴿ **أنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ وهى ما ذبحوا لآلهتهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله. وقيل : إن المراد : لا يحجون عليها افتراء على الله، أى للافتراء عليه ﴿ **سيجزيهم بما كانوا يفترون**﴾ أى بافترائهم أو بالذى يفترونه ، ويجوزأن يكون افتراء منتصبًا على أنه مصدر ، أى افتروا افتراء أو حال ، أى مفترين ، وانتصابه على العلة أظهر، ثم بين الله سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال : ﴿ **وقالوا ما فى بُطون هذه الأنعام**﴾ يعنون البحائر والسوائب من الأجنة ﴿ **خالصة لذكورنا** ﴾ أى حلال لهم ﴿ **ومحرم على أزواجنا** ﴾ أى على جنس الأزواج ، وهن النساء فيدخل فى ذلك البنات والأخوات ونحوهن . وقيل : هو اللبن جعلوه حلالا للذكور ومحرمًا على الإناث ، والهاء فى خالصة للمبالغة فى

---

(١) وقد روى هذا الأثر أيضا ابن جرير : ٨/ ٣٢ . والعيلة : ــ بفتح فسكون ــ الفقر وشدة الحاجة .

الخلوص كعلامة ونسابة ، قاله الكسائى والأخفش ، وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام . ورد بأن ما فى بطون الأنعام غير الأنعام ، وتعقب هذا الرد بأن ما فى بطون الأنعام أنعام ، وهى الأجنة ، وما عبارة عنها ، فيكون تأنيث خالصة بمعنى ما وتذكير محرم باعتبار لفظها . وقرأ الأعمش :« خالص » قال الكسائى : معنى خالص وخالصة واحد إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه. وقرأ قتادة : « خالصة » بالنصب على الحال من الضمير فى متعلق الظرف الذى هو صلة لما وخبر المبتدأ محذوف كقولك :الذى فى الدار قائما زيد ، هذا قول البصريين . وقال الفراء : إنه انتصب على القطع . وقرأ ابن عباس « خالصة » بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما . وقرأ سعيد بن جبير: « خالصا » ﴿ **وإن يكن ميتة** ﴾ قرئ بالتحتية والفوقية ، أى وإن يكن الذى فى بطون الأنعام ﴿ **ميتة فهم فيه** ﴾ أى فى الذى فى البطون ﴿ **شركاء** ﴾ يأكل منه الذكور والإناث ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ أى بوصفهم على أنه منتصب بنزع الخافض، والمعنى : سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله . وقيل : المعنى : سيجزيهم جزاء وصفهم . ثم بين الله سبحانه نوعًا آخر من جهالاتهم فقال :﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها** ﴾ أى بناتهم بالوأد الذى كانوا يفعلونه سفها ، أى لأجل السفه ، وهو الطيش والخفة لا لحجة عقلية ولا شرعية كائنا ذلك منهم ﴿ **بغير علم** ﴾ يهتدون به . قوله : ﴿ **وحرموا ما رزقهم الله** ﴾ من الأنعام التى سموها بحائر وسوائب ﴿ **افتراء على الله** ﴾ أى للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه ﴿ **قد ضلوا** ﴾ عن طريق الصواب بهذه الأفعال ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ إلى الحق ولاهم من أهل الاستعداد لذلك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث حجر** ﴾ قال : الحجر ما حرموا من الوصية وتحريم ما حرموا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث حجر** ﴾ قال: ما جعلوا لله ولشركائهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ **وحرث حجر** ﴾ قال : حرام . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : يقولون حرام أن يطعم الابن شيئا ﴿ **وأنعام حرمت ظهورها** ﴾ قال : البحيرة والسائبة والحامى ﴿ **وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ إذا نحروها .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى وائل فى قوله : ﴿ **وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ قال : لم تكن يحج عليها وهى البحيرة .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام** ﴾ الآية قال : اللبن . وأخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال : السائبة ، والبحيرة محرم على أزواجنا قال : النساء ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ قال : قولهم الكذب فى ذلك . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه ، فكان للرجال دون النساء ، وإن

كانت أنثى تركوها فلم تذبح ، وإن كانت ميتة كانوا فيها شركاء . وأخرج عبد بن حميد والبخارى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام : ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ (١) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبى والفاقة ، ويغذو كلبه ﴿ **وحرموا ما رزقهم الله** ﴾ قال : جعلوه بحيرة، وسائبة ، ووصيلة ، وحاميًا تحكما من الشيطان فى أموالهم .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢)** ﴾

هذا فيه تذكير لهم ببديع قدرة اللّه وعظيم صنعه ﴿ **أنشأ** ﴾ أى خلق ، والجنات : البساتين ﴿ **معروشات** ﴾ مرفوعات على الأعمدة ﴿ **وغير معروشات** ﴾ غير مرفوعات عليها . وقيل : المعروشات : ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ ، وغير المعروشات : ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار . وقيل : المعروشات : ما أنبته الناس وعرشوه ، وغير المعروشات : ما نبت فى البرارى والجبال . قوله : ﴿ **والنخل والزرع** ﴾ معطوف على جنات ، وخصهما بالذكر مع دخولهما فى الجنات لما فيها من الفضيلة ﴿ **مختلفا أكله** ﴾ أى حال كونه مختلفا أكله فى الطعم والجودة والرداءة . قال الزجاج : وهذه مسألة مشكلة فى النحو، يعنى انتصاب ﴿ **مختلفا** ﴾ على الحال لأنه يقال : قد أنشأها ولم يختلف أكلها ، فالجواب أن اللّه سبحانه أنشأها مقدرًا فيها الاختلاف ، وقد بين هذا سيبويه بقوله : مررت برجل معه صقر صائدًا به غدا، أى مقدرًا للصيد به غدًا ،كما تقول : لتدخلن الدار آكلين شاربين ، أى مقدرين ذلك ، وهذه هى الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدونة فى كتب النحو، وقال : ﴿ **مختلفا أكله** ﴾ ولم يقل : أكلها ، اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : ١١] أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة ، أى أكل ذلك . قوله : ﴿ **والزيتون والرمان** ﴾ معطوف على جنات ، أى وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابها وغير متشابه ، وقد تقدم الكلام عن تفسير هذا ﴿ **كلوا من ثمره** ﴾ أى من ثمركل واحد

(١) البخارى فى المناقب (٣٥٢٤) .

منهما ، أو من ثمر ذلك ﴿ **إذا أثمر** ﴾ أى إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد . قوله : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ .

وقد اختلف أهل العلم : هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب ؟ فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما . وذهب ابن عباس ومحمد ابن الحنفية والحسن والنخعى وطاوس وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريج أن هذه الآية منسوخة بالزكاة . واختاره ابن جرير ، ويؤيده أن هذه الآية مكية وآية الزكاة مدنية فى السنة الثانية بعد الهجرة ، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف . وقالت طائفة من العلماء : إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب . قوله : ﴿ **ولا تسرفوا** ﴾ أى فى التصدق ، وأصل الإسراف فى اللغة : الخطأ . والإسراف فى النفقة : التبذير . وقيل : هوخطاب للولاة يقول لهم: لا تأخذوا فوق حقكم . وقيل : المعنى : لا تأخذوا الشىء بغير حقه وتضعونه فى غير مستحقه .

قوله : ﴿ **ومن الأنعام حمولة وفرشًا** ﴾ معطوف على جنات ، أى وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشًا ، والحمولة ما يحمل عليها ، وهو يختص بالإبل فهى فعولة بمعنى فاعلة ، والفَرش ما يتخذ من الوبر ، والصوف والشعر ، فراشًا يفترشه الناس . وقيل : الحمولة : الإبل والفرش : الغنم . وقيل : الحمولة كل ماحمل عليه الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، والفَرش : الغنم ، وهذا لايتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات . وقيل : الحمولة : ما تركب ، والفرش : ما يؤكل لحمه ﴿ **كلوا مما رزقكم** ﴾ من هذه الأشياء ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ كما فعل المشركون من تحريم مالم يحرمه الله وتحليل مالم يحلله ﴿ **إنه** ﴾ أى الشيطان ﴿ **لكم عدو مبين** ﴾ مظهر للعداوة ومكاشف بها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات** ﴾ قال : المعروشات : ماعرش الناس ﴿ **وغير معروشات** ﴾ ما خرج فى الجبال والبريّة من الثمار . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : معروشات بالعيدان والقصب وغير معروشات قال : الضاحى . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **معروشات** ﴾ قال : الكرم خاصة .

وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِه** ﴾ قال : « ما سقط من السنبل » [1] . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وابن المنذر والنحاس والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ قال: كانوا يعطون من اعتزّ بهم شيئًا

(١) عزاه ابن كثير : ٣/ ١١٠ لابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعًا .

سوى الصدقة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن مجاهد فى الآية قال : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران ويزيد الأصم قال: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه فى المسجد فيجىء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه فهو قوله : ﴿ **وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِه** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن حماد بن أبى سليمان فى الآية قال : كانوا يطعمون منه رطبًا . وأخرج أحمد وأبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله ؛ أن النبى ﷺ أمر من كل حادى عشرة أوسُق من التمر بقنو يعلق فى المسجد للمساكين [١] . وإسناده جيد . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ نسخها العشر ونصف العشر [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وأبو داود فى ناسخه، وابن المنذر عن السدى نحوه [٣] . وأخرج النحاس وأبو الشيخ والبيهقى عن سعيد بن جبير نحوه [٤]. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك نحوه [٥] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبى قال : إن فى المال حقًا سوى الزكاة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى العالية قال : ما كانوا يعطون شيئًا سوى الزكاة ، ثم إنهم تبادروا وأسرفوا فأنزل الله: ﴿ **ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾[٦]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس جذّ نخلا قال : لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليس له تمرة ، فأنزل الله : ﴿**وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [٧] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبى قبيس ذهبًا فى طاعة الله لم يكن إسرافا . ولو أنفقت صاعًا فى معصية الله كان إسرافًا، وللسلف فى هذا مقالات طويلة .

وأخرج الفريابى وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : الحمولة ما حمل عليه من الإبل ، والفرش صغار الإبل التى لا تحمل . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الحمولة : الكبار من الإبل ، والفرش : الصغار من الإبل. وأخرج أبو الشيخ عنه قال : الحمولة : ما حمل عليه ، والفرش : ما أكل منه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحمولة الإبل

---

(١) أحمد ٣/ ٣٥٩، ٣٦٠ وأبو داود فى الزكاة (١٦٦٢).
(٢) ابن أبى شيبة ٣/ ١٨٦ والبيهقى ٤/ ١٣٢ .
(٣) ابن أبى شيبة ٣/ ١٨٦ .
(٤) البيهقى ٤/ ١٣٣ .
(٥) ابن أبى شيبة ٣/ ١٨٦ .
(٦) المصدر السابق ٣/ ١٨٥ وابن جرير ٨/ ٤٥ .
(٧) ابن جرير ٨/ ٤٥ .

والخيل والبغال والحمير وكل شىء يحمل عليه ، والفرش : الغنم . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : الحمولة : الإبل والبقر ، والفرش الضأن والمعز .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾

اختلف فى انتصاب ﴿ ثمانية ﴾ على ماذا ؟ فقال الكسائى : بفعل مضمر ، أى وأنشأ ثمانية أزواج ، وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرشا ؛ وقال الأخفش على بن سليمان : هو منصوب بـ﴿ كلوا ﴾ ، أى كلوا لحم ثمانية أزواج . وقيل : منصوب على أنه بدل من « ما » فى ﴿ مما رزقكم الله ﴾ والزوج : خلاف الفرد يقال : زوج أو فرد ، كما يقال : شفع أو وتر ، فقوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ يعنى ثمانية أفراد وإنما سمى الفرد زوجًا فى هذه الآية ؛ لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر ، ويقع لفظ الزوج على الواحد ، فيقال : هما زوج وهو زوج ، ويقول : اشتريت زوجى حمام ، أى ذكرًا وأنثى ، والحاصل أن الواحد إذا كان منفردًا سواء كان ذكرا أو أنثى ، قيل له فرد ، وإن كان الذكر مع أنثى من جنة قيل لهما زوج ولكل واحد على انفراده منهما زوج، ويقال لهما أيضا: زوجان، ومنه قوله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة : ٣٩] .

قوله : ﴿ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بدل من ثمانية منتصب بناصبه على حسب الخلاف السابق ، والضأن ذوات الصوف من الغنم ، وهو جمع ضائن . ويقال للأنثى : ضائنة ، والجمع ضوائن. وقيل : هو جمع لا واحد له. وقيل : فى جمعه : ضئين كعبد وعبيد . وقرأ طلحة بن مصرف: « الضأن » بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بسكونها . وقرأ أبان بن عثمان : « ومن الضأن اثنان ومن المعز اثنان » رفعًا بالابتداء .

قوله : ﴿ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ معطوف على ما قبله مشارك له فى حكمه ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وابن كثير وأهل البصرة بفتح العين ﴿ من المعز ﴾ . وقرأ الباقون بسكونها ، قال النحاس : الأكثر فى كلام العرب المعز والضأن بالإسكان ، والمعز من الغنم خلاف الضأن ، وهى ذوات الأشعار والأذناب القصار ، وهو اسم جنس ، وواحد المعز ماعز ، مثل صحب وصاحب، وركب وراكب ، وتجر وتاجر ، والأنثى ماعزة ، والمراد من هذه الآية : أن الله سبحانه بيَّن حال الأنعام وتفاصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحًا للامتنان بها على عباده ،

ودفعًا لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها وتحريم بعضها تقوّلاً على الله سبحانه وافتراءً عليه، والهمزة فى : ﴿ **قل آلذكرين حرم أم الأنثيين** ﴾ للإنكار ، والمراد بالذكرين الكبش والتيس، وبالأنثيين النعجة والعنز ، وانتصاب الذكرين بحرَّم، والأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه . والمعنى : الإنكار على المشركين فى أمر البحيرة وما ذكر معها . وقولهم : ﴿ **ما فى بُطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرم على أزواجنا** ﴾ أى قل لهم : إن كان حرم الذكور فكل ذكر حرام ، وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام ، وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين يعنى من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكرًا كان أو أنثى ، وكلها مولود . فيستلزم أن كلها حرام . وقوله : ﴿ **نبئونى بعلم إن كنتم صادقين** ﴾ أى أخبرونى بعلم لا بجهل إن كنتم صادقين . والمراد من هذا : التبكيت لهم ، وإلزام الحجة ؛ لأنه يعلم أنه لا علم عندهم ، وهكذا الكلام فى قوله : ﴿ **ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين** ﴾ إلى آخره .

قوله : ﴿ **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا** ﴾ أم هى المنقطعة ، والاستفهام للإنكار ، وهى بمعنى بل والهمزة ، أى بل أكنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم الله بهذا التحريم ؟ والمراد : التبكيت وإلزام الحجة كما سلف قبله . قوله : ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا** ﴾ أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا فحرَّم شيئًا لم يحرمه الله ونسب ذلك افتراءً عليه كما فعله كبراء المشركين ، واللام فى ﴿ **ليُضلَّ الناس بغير علم** ﴾ للعلة ، أى لأجل يضل الناس بجهل ، وهو متعلق بـ﴿ **افترى** ﴾ ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ على العموم . وهؤلاء المذكورون فى السياق داخلون فى ذلك دخولا أوليًا ، وينبغى أن ينظر فى وجه تقديم المعز والضأن على الإبل والبقر مع كون الإبل والبقر أكثر نفعًا وأكبر أجسامًا وأعود فائدة ، لاسيما فى الحمولة والفرش اللَّذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح فى إعراب ثمانية .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه ، من طرق عن ابن عباس قال : الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز ، وليت شعرى ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة ، فإنها لا تتعلق به فائدة ، وكون الأزواج الثمانية هى المذكورة هو هكذا فى الآية مصرحًا به تصريحًا لا لبس فيه . وأخرج عبد ابن حميد عن قتادة قال : الذكر والأنثى زوجان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله :﴿ **ثمانية أزواج** ﴾ قال : فى شأن ما نهى الله عنه من البحيرة والسائبة. وأخرج ابن أبى حاتم عن ليث بن أبى سليم قال : الجاموس والبختى من الأزواج الثمانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين** ﴾ قال : فهذه أربعة ﴿ **قل آلذَّكَرَيْن حَرَّمَ أم الأنْثَيَيْنِ** ﴾ يقول : لم أحرم شيئًا من ذلك ﴿ **أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْه أرْحَامُ الأنْثَيَيْن** ﴾ يعنى : هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم يحرّمون بعضًا ويُحلون بعضًا ؟ ﴿ **نَبئُونى بِعِلْمٍ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ يقول: كلها حلال يعنى ما تقدم ذكره مما حرمه أهل الجاهلية .

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد فى شىء مما أوحى إليه محرما غير هذه المذكورات، فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها لولا أنها مكية ، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وصح عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير، وتحريم الحمر الأهلية (١) والكلاب ونحو ذلك . وبالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدل عليه السياق ويفيده الاستثناء ، فيضم إليه كل ما ورد بعده فى الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شىء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شىء حرمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضم إليه كل ماورد بعده مما فيه تحريم شىء من الأشياء . وقد روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة . أنه لا حرام إلا ما ذكره الله فى هذه الآية ، وروى ذلك عن مالك وهو قول ساقط ، ومذهب فى غاية الضعف ، لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعده من القرآن ، وإهمال ما صح عن النبى ﷺ ، أنه قاله بعد نزول هذه الآية بلاسبب يقتضى ذلك ولا موجب يوجبه .

قوله : ﴿ **محرّما** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى طعاما محرما « على » أى ﴿ **طاعم يطعمه** ﴾ من المطاعم ، وفى ﴿ **يطعمه** ﴾ زيادة تأكيد وتقريرلما قبله ﴿ **إلا أن يكون ميتة** ﴾ أى ذلك الشىء أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس . وقرئ : ﴿ **يكون** ﴾ بالتحتية والفوقية ، وقرئ :« ميتة » بالرفع على أن يكون تامة . والدم المسفوح : الجارى ، وغير المسفوح : معفوّ عنه كالدم الذى يبقى فى العروق بعد الذبح، ومنه الكبد والطحال ، وهكذا ما يتلطخ به اللحم من الدم . وقد حكى القرطبى الإجماع على هذا (٢) .

قوله : ﴿ **أولحم خنزير** ﴾ ظاهرتخصيص اللحم أنه لايحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم ، والضمير فى ﴿ **فإنه** ﴾ راجع للحم أو إلى الخنزير ، والرجس : النجس ، وقد تقدم تحقيقه . قوله : ﴿ **أو فسقا** ﴾ عطف على لحم خنزير، و﴿ **أهلّ به لغير الله** ﴾ صفة فسق ، أى ذبح على الأصنام ، وسمى فسقًا ؛ لتوغله فى باب الفسق . قيل : ويجوز أن يكون ﴿ **فسقًا** ﴾ مفعولا له لأُهلَّ ، أى أَهَلَّ به لغير الله فسقًا على عطف أَهَلَّ على يكون ، وهو تكلف لا حاجة إليه ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ** ﴾ قد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فلا نعيده ﴿ **فإن ربك غفور**

(١) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٥٢٧) عن الزهرى ومسلم فى الصيد والذبائح (١٩٣٤ / ١٦) عن ابن عباس . ونصه : « نهى رسول الله ﷺ عن كل ذى ناب من السباع ، وعن كل ذى مخلب من الطير » .
(٢) القرطبى ٤/ ٢٥٦٠ .

رحيم ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة فلا يؤاخذ المضطر بما دعت إليه ضرورته .

وقد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويحلون أشياء ، فنزلت : ﴿ **قل لا أجد** ﴾ الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تعذرًا ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **قل لا أجد** ﴾ إلى آخرها (١) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه أنه تلا هذه الآية فقال : ما خلا هذا فهو حلال . وأخرج البخارى وأبو داود وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد : إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر ؛ فقال : قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفارى عندنا بالبصرة عن رسول الله ﷺ ، ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس ، وقرأ : ﴿ **قل لا أجد** ﴾ الآية (٢) ، وأقول : وإن أبى ذلك البحر فقد صح عن رسول الله ﷺ ، والتمسك بقول صحابى فى مقابلة قول النبى ﷺ من سوء الاختيار وعدم الإنصاف .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ليس شىء من الدواب حرام إلا ما حرم الله فى كتابه ﴿ **قُلْ لا أَجِد فِيمَا أوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا** ﴾ الآية . وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أنه سئل عن أكل القُنْفُذَ ، فقرأ : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما** ﴾ الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبى ﷺ فقال : « خبيثة من الخبائث » ، فقال ابن عمر : إن كان النبى ﷺ قال فهوكما قال (٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير تَلَتْ : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلىَّ محرما** ﴾ الآية .

وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ، أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت : يا رسول الله، ماتت فلانة ، تعنى : الشاة ، قال : « فلولا أخذتم مسكها » ؟ قالت : يا رسول الله ، أنأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقرأ رسول الله ﷺ : « ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة** ﴾ وأنتم لا تطعمونه ، وإنما تدبغونه حتى تستنفعوا به » فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته

---

(١) أبو داود فى الأطعمة (٣٨٠٠) وصححه الحاكم ٤/ ١١٥ ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٥٢٩) وأبو داود فى الأطعمة (٣٨٠٨) .

(٣) أبو داود فى الأطعمة (٣٧٩٩) .

فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها [١]. ومثل هذا حديث شاة ميمونة، وهو فى الصحيح[٢]، ومثله حديث : « إنما حرم من الميتة أكلها » وهو أيضا فى الصحيح [٣] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو دمًا مسفوحًا** ﴾ قال : مهراقا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه ، قال : هو دم مسفوح. وأخرج أبو الشيخ عن الشعبى : أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرمًا** ﴾ الآية . والأحاديث الواردة بتحريم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير والحمر الأهلية ونحوها مستوفاة فى كتب الحديث .

﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)** ﴾

قدم ﴿ **عَلَى الذين هادُوا** ﴾ على الفعل ؛ للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لا يجاوزهم إلى غيرهم ، والذين هادوا : اليهود ، ذكر الله ما حرمه عليهم عقب ذكر ما حرمه على المسلمين . والظُّفُر : واحد الأظفار، ويجمع أيضا على أظافير، وزاد الفراء فى جموع ظفر أظافر وأظافرة، وذو الظفر ماله أصبع من دابة أو طائر، ويدخل فيه الحافر والخف والمخلب ، فيتناول الإبل والبقر والغنم والنعام والأوز والبط ، وكل ماله مخلب من الطير ، وتسمية الحافر والخف ظفرًا مجازًا والأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر فى لغة العرب ؛ لأن هذا التعميم يأباه ما سيأتى من قوله : ﴿ **ومن البقر والغنم** ﴾ فإن كان فى لغة العرب بحيث يقال على البقر والغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصًا حرّم الله ذلك عليهم عقوبة لهم على ما وقعوا فيه من الظلم ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحِلت لهم ﴾ [النساء : ١٦٠] .

قوله : ﴿ **ومن البقر والغنم حرَّمْنا عليهم شحومهما** ﴾ لا غير هذه المذكورات كلحمهما ، والشحوم يدخل فيها الثروب وشحم الكلية . وقيل : الثروب جمع ثرب ، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش ، ثم استثنى الله سبحانه من الشحوم ما حملت ظهورهما من الشحم فإنه لم يحرمه الله عليهم ، و « ما » فى موضع نصب على الاستثناء ﴿ **أو الحوايا** ﴾ معطوف على ظهورهما ، أى إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا ، وهى المباعر التى يجتمع البعر

---

(١) أحمد ١/ ٣٢٧ ، ٣٢٨ والبخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٨٦) والنسائى ٧/ ١٧٣ والطبرانى (١١٧٦٥) .
(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٩٢) ومسلم فى الحيض (٣٦٣ / ١٠٠ ، ١٠١) وأبو داود فى اللباس (٤١٢٠) والنسائى ٧ / ١٧٢ ــ ١٧٥ والطبرانى (١١٣٨٣) وكلهم عن ابن عباس رضى الله عنه .
(٣) البخارى فى البيوع (٢٢٢١) عن ابن عباس رضى الله عنه .

فيها ، فما حملته من الشحم غير حرام عليهم ، وواحدها حاوية ، مثل ضاربة وضوارب. وقيل: واحدها حاوياء ، مثل قاصعاء وقواصع . وقيل : حوية ، كسفينة وسفائن . وقال أبو عبيدة : الحوايا ما تحوّى من البطن ، أى استدار ، وهى متحوية ، أى مستديرة . وقيل : الحوايا: خزائن اللبن ، وهى تتصل بالمباعر . وقيل : الحوايا : الأمعاء التى عليها الشحوم .

قوله : ﴿ **أَوْمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** ﴾ معطوف على « ما » فى ﴿ **ما حملت** ﴾ كذا قال الكسائى والفراء وثعلب . وقيل : إن الحوايا وما اختلط بعظم معطوفة على الشحوم . والمعنى : حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرم ولا وجْه لهذا التكلف ولا موجب له لأنه يكون المعنى : إن الله حرم عليهم إحدى هذه المذكورات . والمراد بما اختلط بعظم : ما لصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان ، ومنه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى التحريم المدلول عليه بحرَّمنا ، أى ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم . وقيل : إن الإشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله : ﴿ **جـزيناهم** ﴾ أى ذلك الجزاء جزيناهم ، وهو تحريم ما حرَّمه الله عليهم ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فى كل **ما** نخبر به ، ومن جملة ذلك هذا الخبر وهو موجود عندهم فى التوراة ونصها : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير . وكل دابة ليست مشقوقة الحافر وكل حوت ليس فيه سفاسف ، أى بياض . انتهى .

والضمير فى ﴿ **كذبوك** ﴾ لليهود ، أى فإن كذبك اليهود فيما وصفت من تحريم الله عليهم تلك الأشياء ﴿ **فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ** ﴾ ومن رحمته حلمه عنكم وعدم معاجلته لكم بالعقوبة فى الدنيا ، وهو وإن أمهلكم ورحمكم فـ﴿ **لا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين** ﴾ إذا أنزله بهم واستحقوا المعاجلة بالعقوبة. وقيل : المراد : لا يُرد بأسه فى الآخرة عن القوم المجرمين. والأول أولى ، فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها تحريم الطيبات عليهم فى الدنيا. وقيل : الضمير يعود إلى المشركين ، الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام ، وحللوا بعضها وحرموا بعضها . وقيل : المراد : أنه ذو رحمة للمطيعين ﴿ **وَلَا يُرَدُّ بأسه عن القومِ المجرمين** ﴾ ولا مُلجئ لهذا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كُلَّ ذِى ظُفُرٍ** ﴾ قال : هو الذى ليس بمنفرج الأصابع يعنى ليس بمشقوق الأصابع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . والبيهقى فى سننه عنه ﴿ **كل ذى ظُفُرٍ** ﴾ قال : البعير والنعامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هو كل شىء لم تنفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته اليهود ، قال : انفرجت قوائم الدجاج والعصافير ، فيهود تأكله ، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة ، ولا قائمة الوزينة فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوزينة ، ولا كل شىء لم تنفرج قائمته كذلك ، ولا تأكل حمار الوحش .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما** ﴾ يعنى : ما علق بالظهر من الشحم ﴿ **أو الحوايا** ﴾ هى المبعر. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله: ﴿ **إلا ما حملت ظهورهما** ﴾ قال : الإلية ﴿ **أو الحوايا** ﴾ قال : المبعر ﴿ **أو ما اختلط بعظم** ﴾ قال : الشحم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أو الحوايا** ﴾ قال : المباعر. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن الضحاك : ﴿ **أو الحوايا** ﴾ قال : المرائض والمباعر. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **أو ما اختلط بعظم** ﴾ قال: الإلية اختلط شحم الإلية بالعصعص فهو حلال ، وكل شحم القوائم والجنب والرأس والعين والأذن يقولون : قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم ، إنماحرم عليهم الثرب وشحم الكلية، وكل شىء كان كذلك ليس فى عظم .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فإن كذبوك** ﴾ قال : اليهود. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال :كانت اليهود يقولون :إن ما حرمه إسرائيل فنحن نحرمه ؛ فلذلك قوله : ﴿ **فإن كذَّبوك** ﴾ الآية .

﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)** ﴾

أخبر الله عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة ، وهم كفار قريش أوجميع المشركين ، يريدون أنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا هم ولا آباؤهم ، ولا حرّموا شيئًا من الأنعام ، كالبحيرة ونحوها ، وظنوا أن هذا القول يخلصهم عن الحجة التى ألزمهم بها رسول الله ﷺ وأن ما فعلوه حق ، ولو لم يكن حقًا لأرسل الله إلى آبائهم الذين ماتوا على الشرك ، وعلى تحريم ما لم يحرمه الله رسلاً يأمرونهم بترك الشرك ، وبترك التحريم لما لم يحرمه الله ، والتحليل لما لم يحلله ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ أى مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء الله ﴿ **حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا** ﴾ أى استمروا عل التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذى أنزلناه بهم ، ثم أمره الله أن يقول لهم : ﴿ **هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ أى هل عندكم دليل صحيح بعد من العلم النافع ، فتخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره، والمقصود من هذا التبكيت لهم ؛ لأنه قد علم أنه لاعلم عندهم يصلح للحجة ويقوم به البرهان ، ثم أوضح لهم

أنهم ليسوا على شىء من العلم ، وأنهم إنما يتبعون الظنون ، أى ما يتبعون إلا الظن الذى هو محل الخطأ ومكان الجهل ﴿ **وَإِنْ أَنْتُمْ إلا تَخْرُصُونَ** ﴾ أى تتوهمون مجرد توهم فقط كما يتوهم الخارص ، وقد سبق تحقيقه، ثم أمره الله سبحانه بأن يخبرهم بأن لله الحجة البالغة على الناس ، أى التى تنقطع عندهم معاذيرهم وتبطل شبههم وظنونهم وتوهماتهم. والمراد: بها الكتب المنزلة، والرسل المرسلة، وما جاؤوا به من المعجزات ﴿**فَلَوْ شاءَ**﴾ هدايتكم جميعا ﴿ **لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ ولكنه لم يشأ ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ [الأنعام: ١٠٧] ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [الأنعام : ١١١] ومثله كثير ، ثم أمره الله أن يقول لهؤلاء المشركين: ﴿ **هَلُمَّ شُهَدَاءَكُم** ﴾ أى هاتوهم وأحضروهم وهو اسم فعل يستوى فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى، والمجموع عند أهل الحجاز وأهل نجد يقولون: هلما هلمى هلموا، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال وبلغة أهل الحجاز نزل القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿ والقائلين لإخوانهم هَلُم إلينا ﴾ [الأحزاب : ١٨] والأصل عند الخليل « ها » ضُمَّت إليها «لم» ، وقال غيره :أصلها « هل » زيدت عليها الميم ، وفى كتاب العين للخليل : أن أصلها هل أؤم ، أى هل أقصدك ، ثم كثر استعمالهم لها ، وهذا أيضا من باب التبكيت لهم حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حرَّم تلك الأشياء مع علمه أن لا شهود لهم ﴿ **فَإِنْ شَهِدُوا** ﴾ لهم بغير علم بل مجازفة وتعصب ﴿ **فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ** ﴾ أى فلا تصدقهم ، ولا تسلم لهم ، فإنهم كاذبون جاهلون ، وشهادتهم باطلة ، ﴿ **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ أى ولا تتبع أهواءهم ، فإنهم رأس المكذبين بآياتنا .

قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ** ﴾ معطوف على الموصول ، أى لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، وأهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ **وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ أى يجعلون له عدلا من مخلوقاته كالأوثان . والجملة إما فى محل نصب على الحال ، أو معطوفة على لا يؤمنون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن مجاهد فى قوله : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ قال : هذا قول قريش : إن الله حرم هذا ، أى البحيرة والسائبة ، والوصيلة والحام .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة ﴿ **قُلْ فللَّه الحُجَّةُ البَالغَةُ** ﴾ قال : السلطان . وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ، أنه قيل له : إن ناسًا يقولون : ليس الشر بقدر ، فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية :﴿ **سيقول الذين أشركوا** ﴾ إلى قوله :﴿ **فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ قال ابن عباس : والعجز والكيس من القدر .وأخرج أبو الشيخ عن على بن زيد قال : انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية : ﴿ **قُلْ فللَّه الحُجَّةُ البَالغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُم** ﴾ قال : أرونى شهداءكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾

قوله : ﴿ **قل تعالوا** ﴾ أى تقدموا . قال ابن الشجرى : إن المأمور بالتقدم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدًا، فقيل له : تعال ، أى ارفع شخصك بالقيام وتقدم ، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى. وهكذا قال الزمخشرى فى الكشاف : إنه من الخاص الذى صار عاما ، وأصله أن يقوله : من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم كثر واتسع فيه حتى عمَّ (١) .

قوله : ﴿ **أتل ما حرم ربكم** ﴾ ﴿ **أتل** ﴾ جواب الأمر ، و « ما » موصولة فى محل نصب به ، أى أتل الذى حرمه ربكم عليكم . والمراد من تلاوة ما حرم الله: تلاوة الآيات المشتملة عليه ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، أى أتل تحريم ربكم . والمعنى : ما اشتمل على التحريم . قيل : ويجوز أن تكون « ما » استفهامية ، أى أتل أى شىء حرم ربكم على جعل التلاوة بمعنى القول ، وهو ضعيف جدًا، و﴿ **عليكم** ﴾ إن تعلق بـ ﴿ **أتل** ﴾ فالمعنى: أتل عليكم الذى حرم ربكم ، وإن تعلق بـ﴿ **حرم** ﴾ فالمعنى : أتل الذى حرم ربكم عليكم ، وهذا أولى ؛ لأن المقام مقام بيان ما هو حرم عليكم لا مقام بيان ما هو محرم مطلقًا . وقيل : إن عليكم للإغراء ولا تعلق لها بما قبلها ، والمعنى : عليكم أن لا تشركوا إلى آخره ، أى الزموا ذلك كقوله تعالى : ﴿ عليكم أنفسكم﴾ [المائدة : ١٠٥] وهو أضعف مما قبله ، وأن فى ﴿ **أن لا تشركوا** ﴾ مفسرة لفعل التلاوة ، وقال النحاس : يجوز أن تكون فى موضع نصب بدلاً من «ما»، أى أتل عليكم تحريم الإشراك . وقيل : يجوز أن يكون فى محل رفع بتقدير مبتدأ ، أى المتلو أن لا تشركوا ، و ﴿ **شيئًا** ﴾ مفعول أو مصدر ، أى لا تشركوا به شيئًا من الأشياء ، أو شيئًا من الإشراك . قوله : ﴿ **وبالوالدين إحسانا** ﴾ أى أحسنوا بهما إحسانا ، والإحسان إليهما البر بهما ، واستئال أمرهما ونهيهما . وقد تقدم الكلام على هذا .

قوله :﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ لما ذكرحق الوالدين على الأولاد ، ذكر حق

(١) الكشاف ٢/٧٨ .

الأولاد على الوالدين ، وهو أن لا يقتلوهم من أجل إملاق . والإملاق: الفقر ، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر والإناث خشية الإملاق وتفعله بالإناث خاصة خشية العار ، وحكى النقاش عن مؤرج أن الإملاق : الجوع بلغة لخم ، وذكر منذر بن سعيد البلوطى أن الإملاق : الإنفاق . يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه . والمعنى الأول هو الذى أطبق عليه أئمة اللغة ، وأئمة التفسير ها هنا ﴿ **ولا تقربوا الفواحش** ﴾ أى المعاصى ومنه ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة﴾ [الإسراء : ٣٢] وما فى ﴿ **ما ظهر** ﴾ بدل من الفواحش ، وكذا **ما بطن** والمراد بـ ﴿ **ما ظهر** ﴾: ما أعلن به منها ، ﴿ **وما بطن** ﴾ : ما أسر. وقد تقدم ﴿ **ولا تقتلوا النفس** ﴾ اللام فى النفس للجنس و﴿ **التى حرم الله** ﴾ صفة للنفس ، أى لا تقتلوا شيئًا من الأنفس التى حرمها الله ﴿ **إلا بالحق** ﴾ أى إلا بما يوجبه الحق ، والاستثناء مفرغ ، أى لا تقتلوه فى حال من الأحوال إلا فى حال الحق أولا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا سبب الحق ، ومن الحق قتلها قصاصًا وقتلها بسبب زنا المحصن ، وقتلها بسبب الردة ، ونحو ذلك من الأسباب التى ورد الشرع بها ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم مما تلاه عليهم ، وهو مبتدأ ﴿ **ووصاكم به** ﴾ خبره ، أى أمركم به وأوجبه عليكم ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم** ﴾ أى لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالخصلة ﴿ **التى هى أحسن** ﴾ من غيرها ، وهى ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته ، فيشمل كل وجه من الوجوه التى فيها نفع لليتيم وزيادة فى ماله . وقيل : المراد بالتى هى أحسن: التجارة ﴿ **حتى يبلغ أشده** ﴾ أى إلى غاية هى أن يبلغ اليتيم أشده ، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله ،كما قال تعالى :﴿ فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : ٦] .

واختلف أهل العلم فى الأشد ، فقال أهل المدينة : بلوغه وإيناس رشده . وقال أبو حنيفة: خمس وعشرون سنة . وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : هو البلوغ . وقيل : إنه انتهاء الكهولة ، ومنه قول سحيم الرياحى :

أخُو الخمسين مُجْتَمعٌ أشُدَّى ... ويحدبنى [1] مُدَاوَرَةُ الشُّؤونِ

والأولى فى تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد ، وهو أن يكون فى تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء ، لا مسلك أهل السفه والتبذير ، ويدل على هذا قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : ٦] فجعل بلوغ النكاح ، وهوبلوغ سن التكليف مقيدًا بإيناس الرشد ، ولعله قد سبق هنالك كلام فى هذا ، والأشد واحد لا جمع له. وقيل : واحده شد كفلس وأفلس، وأصله من شد النهار ، أى ارتفع . وقال سيبويه: واحده شدة . قال الجوهرى: وهوحسن فى المعنى ؛ لأنه يقال : بلغ الكلام شدته ، ولكن لا تجمع فعلة على أفعل .

---

(١) فى القرطبى ٤/ ٢٥٧١ « ونجذنى » .

قوله : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** ﴾ أى بالعدل فى الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء ﴿ **لا نكلف نفسًا إلا وسعها** ﴾ أى إلا طاقتها فى كل تكليف من التكاليف ، ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن ، فلا يخاطب المتولى لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه فى الزيادة والنقصان ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا** ﴾ أى إذا قلتم بقول فى خير أوشهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه وتحروا الصواب ، ولا تتعصبوا فى ذلك لقريب ولا على بعيد ، ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو ، بل سووا بين الناس فإن ذلك من العدل الذى أمر الله به ، والضمير فى ﴿ **ولو كان** ﴾ راجع إلى ما يفيده ﴿ **وإذا قلتم** ﴾ فإنه لا بد للقول من مقول فيه ، أو مقول له ، أى ولو كان المقول فيه أو المقول له ﴿ **ذا قربى** ﴾ أى صاحب قرابة لكم . وقيل : إن المعنى : ولو كان الحق على مثل قراباتكم ، والأول أولى ، ومثل هذه الآية قوله :﴿ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [النساء : ١٣٥] .

قوله : ﴿ **وبعهد الله أوفوا** ﴾ أى أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم ، ومن جملة ما عهده إليكم ما تلاه عليكم رسوله بأمره فى هذا المقام ، ويجوز أن يراد به كل عهد ولو كان بين المخلوقين ؛ لأن الله سبحانه لما أمر بالوفاء به فى كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوِّغا لإضافته إليه. والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم ذكره ﴿ **وصاكم به** ﴾ أمركم به أمرًا مؤكدا ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ فتتعظون بذلك .

قوله: ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيمًا** ﴾ أن فى موضع نصب، أى واتل أن هذا صراطى قاله الفراء والكسائى . قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضًا ، أى وصاكم به ، وبأن هذا . وقال الخليل وسيبويه : إن التقدير: ولأن هذا صراطى مستقيما كما فى قوله سبحانه : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [الجن : ١٨] وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : « وإن هذا » بكسر الهمزة على الاستئناف ، والتقدير : الذى ذكر فى هذه الآيات صراطى . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب : «وإن هذا صراطى » بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن ، وقرأ الأعمش : « وهذا صراطى » وفى مصحف عبدالله بن مسعود :« وهذا صراط ربكم » و فى مصحف أبىّ :« وهذا صراط ربك » والصراط : الطريق ، وهو طريق الإسلام ، ونصب مستقيمًا على الحال ، والمستقيم : المستوى الذى لا اعوجاج فيه ، ثم أمرهم باتباعه ، ونهاهم عن اتباع سائر السبل ،أى الأديان المتباينة طرقها ﴿ **فتفرّق بكم** ﴾ أى تميل بكم ﴿ **عن سبيله** ﴾ أى عن سبيل الله المستقيم الذى هو دين الإسلام . قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدل والخوض فى الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد [1] . والإشارة بـ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى ما تقدم وهومبتدأ وخبره ﴿ **وصاكم به** ﴾ أى أكد عليكم الوصية به ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ ما نهاكم عنه.

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٥٧٤ .

وقد أخرج الترمذى وحسنه، وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أيُّكم يبايُعنى على هؤلاء الآيات ؟ » ثم تلا : ﴿ **قل تعالوا** ﴾ إلى ثلاث آيات ، ثم قال : « فَمن وفىَّ بهن فأجره على اللّه ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه ، وإن شاء عفا عنه » (١). وأخرج ابن أبى شيبة وابن الضريس وابن المنذر عن كعب الأحبار قال : أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات ، وهى العشر التى أنزلت من آخر الأنعام : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى آخرها . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبدالله بن عدى بن الخيار قال : سمع كعب رجلا يقرأ : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا** ﴾ فقال كعب : والذى نفس كعب بيده إنها لأول آية فى التوراة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ إلى آخر الآيات . انتهى .

قلت : هى الوصايا العشر التى فى التوراة ، وأولها : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله غيرى . ومنها : أكرم أباك وأمك ، ليطول عمرك فى الأرض ، التى يعطيك الرب إلهك ، لا تقتل ، لا تزن ، لاتسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بنت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك ، فلعل مراد كعب الأحبار هذا ، ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور فى آخر زبورهم ، وأهل الإنجيل فى أول إنجيلهم . وهى مكتوبة فى لوحين، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ قال : من خشية الفاقة ، قال : وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبى ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ قال : سرها وعلانيتها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ قال : خشية الفقر ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ قال : كانوا فى الجاهلية لا يرون بالزنا بأسًا فى السر ويستقبحونه فى العلانية ، فحرم الله الزنا فى السر والعلانية .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيمًا** ﴾ قال: اعلموا أن السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة ، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعه الضلالة ومصيرها النار . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار والنسائى وابن المنذر وابن

---

(١) البخارى فى الحدود (٦٧٨٤) ومسلم فى الحدود (٤١/١٧٠٩) والترمذى فى الحدود (١٤٣٩) وقال : « حسن صحيح » والنسائى ٧/ ١٤٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣١٨ ووافقه الذهبى .

أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيما » ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : « وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ (١) . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن مردويه من حديث جابر نحوه . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود ، أن رجلا سأله : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمدًا ﷺ فى أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد ، وثَم رجال يدعون مَنْ مَرَّ بهم فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه**﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا تتبعوا السبل** ﴾ قال : الضلالات .

﴿ **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)** ﴾

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التى وصى الله عباده بها ، وقد استشكل العطف بِثُمَّ مع كون قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه، وهو ما تقدم من قوله : ﴿ **ذلكم وصاكم به** ﴾ فقيل : إن ثُم ها هنا بمعنى الواو. وقيل : تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ . وقيل : المعنى : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ثم اتل إيتاء موسى الكتاب . وقيل : إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبى يوصى بها أمته . وقيل : إن ثم للتراخى فى الإخبار كما تقول : بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب .

قوله : ﴿ **تماما** ﴾ مفعول لأجله أو مصدر ، و﴿ **على الذى أحسن** ﴾ قرئ بالرفع وهى

---

(١) أحمد ١/ ٤٦٥ والنسائى فى التفسير (١٩٤) وصححه الحاكم ٢/ ٣١٨ ووافقه الذهبى ، والدارمى ١/ ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) ابن جرير ٨/ ٦٥ .

قراءة يحيى بن يعمر وابن أبى إسحاق ، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ ، أى على الذى هو أحسن ، ومنه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع : ما أنا بالذى قائل لك شيئًا . وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماض عند البصريين ، وأجاز الفراء والكسائى اسما نعتًا للذى ، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتم ، والمعنى عندهم تمامًا على من أحسن قبوله والقيام به كائنا من كان ، ويؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ :« تماما على الذين أحسنوا» وقال الحسن : كان فيهم محسن وغير محسن ، فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين . وقيل : المعنى: أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه. وقيل : المعنى : تماما على الذى أحسن به الله عز وجل إلى موسى من الرسالة وغيرها . وقيل : تماما على إحسان موسى بطاعة الله عز وجل قاله الفراء . قوله : ﴿ **وتفصيلاً لكل شىء** ﴾ معطوف على تماما ، أى ولأجل تفصيل كل شىء وكذا ﴿ **هدى ورحمة** ﴾ معطوفتان عليه ، أى وللهدى والرحمة ، والضمير فى لعلهم راجع إلى بنى إسرائيل المدلول عليه بذكر موسى ، والباء فى ﴿ **بلقاء** ﴾ متعلقة بـ ﴿ **يؤمنون** ﴾ .

قوله :﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ الإشارة إلى القرآن ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره كتاب، وأنزلناه صفة لكتاب، ومبارك صفة أخرى له، وتقديم صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقا بها ، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية ﴿ **فاتبعوه** ﴾ فإنه لما كان من عند الله ، وكان مشتملا على البركة ، كان اتباعه متحتما عليكم ﴿ **واتقوا** ﴾ مخالفته والتكذيب بما فيه ﴿ **لعلكم** ﴾ إن قبلتموه ولم تخالفوه ﴿ **ترحمون** ﴾ برحمة الله سبحانه. و« أن » فى ﴿ **أن تقولوا** ﴾ فى موضع نصب . قال الكوفيون : لئلا تقولوا . وقال البصريون :كراهة أن تقولوا . وقال الفراء والكسائى:المعنى : فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة : ﴿ **إنما أنزل الكتاب** ﴾ أى التوراة والإنجيل ﴿ **على طائفتين من قبلنا** ﴾ وهم اليهود والنصارى ولم ينزل علينا كتاب ﴿ **وإن كنا عن دراستهم** ﴾ أى عن تلاوة كتبهم بلغاتهم ﴿ **لغافلين** ﴾ أى لا ندرى ما فيها ، ومرادهم : إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم والغفلةعن معناهما.

قوله :﴿ **أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب** ﴾ معطوف على ﴿ **تقولوا** ﴾ أى أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا ﴿ **لكنا أهدى منهم** ﴾ إلى الحق الذى طلبه الله ، فإن هذه المقالة والمعذرة منهم مندفعة بإرسال محمد ﷺ إليهم ، وإنزال القرآن عليه ، ولهذا قال : ﴿ **فقد جاءكم بينة من ربكم** ﴾ أى كتاب أنزله الله على نبيكم ، وهو منكم يا معشر العرب ، فلا تعتذروا بالأعذار الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة ، فقد أسفر الصبح لذى عينين ﴿ **وهدى ورحمة** ﴾ معطوف على ﴿ **بينة** ﴾ أى جاءكم البينة الواضحة والهدى الذى يهتدى به كل من له رغبة فى الاهتداء، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله والصدوف عنها ، أى الانصراف

عنها ، وصرف من أراد الإقبال إليها ﴿ **فَمن أظلم ممن كذَّب بآيات الله** ﴾ التى هى رحمة وهدى للناس ﴿ **وصدف عنها** ﴾ فضَّل بانصرافه عنها، وأضل بصرف غيره عن الإقبال إليها ﴿ **سَنَجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب** ﴾ أى العذاب السيئ بسبب ﴿ **ما كانوا يصدفون** ﴾ وقيل : معنى صدف : أعرض ، ويصدفون : يعرضون ، وهو مقارب لمعنى الصرف ، وقد تقدم تحقيق معنى هذا اللفظ ، والاستفهام فى ﴿ **فمن أظلم** ﴾ للإنكار، أى إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها ، مع ما يفيده ذلك من التبكيت لهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **تماما على الذى أحسن** ﴾ قال : على المؤمنين المحسنين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر ﴿ **تماما على الذى أحسن** ﴾ قال : تمامًا لما كان قد أحسن الله. وأخرج أيضًا عن ابن زيد قال : تمامًا لنعمته عليهم وإحسانه إليهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله :﴿ **وهذا كتاب** ﴾ قال : هو القرآن الذى أنزله الله على محمد ﴿ **فاتبعوه واتقوا** ﴾ يقول : فاتبعوا ما أحل الله فيه ، واتقوا ما حرَّم . وأخرج هؤلاء عن مجاهد ، فى قوله : ﴿ **على طائفتين من قبلنا** ﴾ قال : اليهود والنصارى ، خاف أن تقوله قريش . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هم اليهود والنصارى ﴿ **وإن كنا عن دراستهم** ﴾ قال : تلاوتهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **لكنا أهدى منهم** ﴾ قال : هذا قول كفار العرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فقد جاءكم بينة من ربكم** ﴾ يقول : قد جاءتكم بينة لسان عربى مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **صدف عنها** ﴾ قال : أعرض عنها . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك فى قوله : ﴿ **يصدفون** ﴾ قال :يعرضون .

﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ** (١٥٨) ﴾

أى لما أقمنا عليهم الحجة : وأنزلنا الكتاب على رسولنا المرسل إليهم ، فلم ينفعهم ذلك ولم يرجعوا به عن غوايتهم فما بقى بعد هذا إلا أنهم ﴿ **ينظرون** ﴾ أى ينتظرون ﴿ **أن تأتيهم الملائكة** ﴾ أى ملائكة الموت لقبض أرواحهم ، وعند ذلك لاينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿ **أو يأتى ربك** ﴾ يا محمد كما اقترحوه بقولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان : ٢١] وقيل : معناه : أو يأتى أمر ربك بإهلاكهم . وقيل : المعنى : أو يأتى كل آيات ربك بدليل قوله : ﴿ **أو يأتى بعض آيات ربك** ﴾ وقيل : هو من المتشابه الذى لا يعلم

تأويله إلا الله ، وقد جاء فى القرآن حذف المضاف كثيرا ، كقوله: ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف: ٨٢] وقوله :﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل ﴾ [البقرة : ٩٣] أى حب العجل . وقيل : إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه ، كقوله: ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ [الفجر : ٢٢] .

قوله : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك** ﴾ قرأ ابن عمر وابن الزبير : « يوم تأتى » بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية . قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث ، لا على الأصل ، ومنه قول جرير :

لما أَتَى خَبَرُ الزبير تواضَعتْ سُوُرُ المدينة والجبال الخُشَّعُ (١)

وقرأ ابن سيرين : « لا تنفع » بالفوقية ، قال أبو حاتم : إن هذا غلط عن ابن سيرين . وقد قال الناس : فى هذا شيء دقيق من النحو ذكره نفطويه ، وذلك أن الإيمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فأنَّث الإيمان إذ هو من النفس . قال النحاس : وفيه وجه آخر ، وهو: أن يؤنث الإيمان لأنه مصدر ، كما يذكر المصدر المؤنث مثل : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ومعنى ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك** ﴾ : يوم يأتى الآيات التى اقترحوها ، وهى التى تضطرهم إلى الإيمان ﴿ **لا ينفع نفسًا إيمانها** ﴾ أو ما هو أعم من ذلك ، فيدخل فيه ما ينتظرونه . وقيل : هى الآيات التى هى علامات القيامة المذكورة فى الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ ، فهى التى إذا جاءت لا ينفع نفسًا إيمانها .

قوله : ﴿ **لم تكن آمنت من قبل** ﴾ أى من قبل إتيان بعض الآيات ، فأما التى قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها ، وجملة : ﴿ **لم تكن آمنت من قبل** ﴾ فى محل نصب على أنها صفة ﴿ **نفسًا** ﴾ ، قوله : ﴿ **أوكسبت فى إيمانها خيرا** ﴾ معطوف على ﴿ **آمنت** ﴾ والمعنى : أنه لا ينفع نفسًا إيمانها عند حضور الآيات متصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل ، أو آمنت من قبل ولكن لم تكسب فى إيمانها خيرًا ، فحصل من هذا : أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير فى الإيمان ، فمن آمن من قبل فقط ولم يكسب خيرًا فى إيمانه ، أو كسب خيرًا ولم يؤمن ، فإن ذلك غير نافعه ، وهذا التركيب هو كقولك : لا أعطى رجلاً اليوم أتانى لم يأتنى بالأمس ، أو لم يمدحنى فى إتيانه إلىّ بالأمس ، فإن المستفاد من هذا أنه لا يستحق العطاء إلارجل أتاه بالأمس ومدحه فى إتيانه إليه بالأمس ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم :﴿ **انتظروا** ﴾ ما تريدون إتيانه ﴿ **إنا منتظرون** ﴾ له وهذا تهديد شديد ، ووعيد عظيم ، وهو يقوّى ما قيل فى تفسير ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك** ﴾ إنها الآيات التى اقترحوها من إتيان الملائكة ، وإتيان العذاب لهم من قبل

---

(١) وصف مقتل الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ صاحب رسول الله ﷺ حين انصرف يوم الجمل، وقتل فى الطريق غيلة .

الله كما تقدم بيانه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة** ﴾ قال : عند الموت ﴿ **أو يأتى ربك** ﴾ قال :يوم القيامة. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى تفسير الآية مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل ﴿ **أو يأتى ربك** ﴾ قال : يوم القيامة فى ظلل من الغمام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد فى مسنده ، والترمذى وأبو يعلى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك** ﴾ قال :« طلوع الشمس من مغربها» قال الترمذى : غريب (١) . ورواه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى سعيد موقوفا (٢) . وأخرجه الطبرانى وابن عدى وابن مردويه من حديث أبى هريرة مرفوعا (٣) . وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد والطبرانى عن ابن مسعود موقوفا (٤) . فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوى من وجه صحيح لا قادح فيه ، فهو واجب التقديم له متحتم الأخذ به ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها » ، ثم قرأ الآية (٥) . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى ذر مرفوعا نحوه (٦) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا (٧) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **أو كسبت فى إيمانها خيرا** ﴾ يقول : كسبت فى تصديقها عملاً صالحا ، هؤلاء أهل القبلة ، وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيرًا فعملت بعد أن رأت الآية لم يُقبل منها ، وإن عملت قبل الآية خيرًا ، ثم عملت

---

(١) أحمد ٣/ ٣١ والترمذى فى التفسير (٣٠٧١) وقال : « حسن غريب » وأبو يعلى (١٣٥٣ / ٣٧٩) وابن جرير ٨/ ٩٧ .

(٢) ابن أبى شيبة فى الفتن (١٩٤٤٣) وعبد بن حميد فى المنتخب (٩٠٢) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٥ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات » .

(٤) ابن أبى شيبة (١٩٤٤٤) والطبرانى (٩٠١٩ ، ٩٠٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٥ عن الرواية الثانية : « رجالها ثقات » .

(٥) البخارى فى التفسير (٤٦٣٥) ومسلم فى الإيمان (٢٤٨/١٥٧) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١٢) والنسائى فى التفسير (١٩٧) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٨) .

(٦) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠) وأبو داود فى الحروف (٤٠٠٢) ــ بمعناه ــ والترمذى فى الفتن (٢١٨٦) وفى التفسير(٣٢٢٧) والنسائى فى التفسير (١٩٦) والطبرى ٨/ ٩٧ ، ١٠٠ وأصله عند البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٩) والتفسير (٤٨٠٣) والتوحيد (٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .

(٧) أورد ابن كثير ٣/ ١٣٤ رواية ابن مردويه وقال : « هو حديث غريب جدًا ، بل منكر ، بل موضوع ، وإن ادعى أنه مرفوع » .

بعد الآية خيراً قبل منها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل فى قوله : ﴿ **أو كسبت فى إيمانها خيراً** ﴾ قال : يعنى : المسلم الذى لم يعمل فى إيمانه خيراً ، وكان قبل الآية مقيمًا على الكبائر ، والآيات التى هى علامات القيامة قد وردت الأحاديث المتكاثرة فى بيانها ، وتعدادها ، وهى مذكورة فى كتب السنة .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)** ﴾

قرأ حمزة والكسائى : « فارقوا دينهم » وهى قراءة على بن أبى طالب ، أى تركوا دينهم ، وخرجوا عنه ، قرأ الباقون : ﴿ **فرقوا** ﴾ بالتشديد إلا النخعى ، فإنه قرأ بالتخفيف . والمعنى : أنهم جعلوا دينهم متفرقًا ، فأخذوا ببعضه، وتركوا بعضه . قيل : المراد بهم : اليهود والنصارى. وقد ورد فى معنى هذا فى اليهود قوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ [البينة : ٤] . وقيل : المراد بهم : المشركون ؛ عبد بعضهم الصنم، وبعضهم الملائكة . وقيل : الآية عامة فى جميع الكفار ، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله ، وهذا هو الصواب ؛ لأن اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب ، وطوائف المشركين وغيرهم ، ممن ابتدع من أهل الإسلام ، ومعنى ﴿ **شيعًا** ﴾ : فرقًا وأحزابًا ، فتصدق على كل قوم كان أمرهم فى الدين واحدًا مجتمعًا ، ثم اتبع كل جماعة رأى كبير من كبرائهم ، يخالف الصواب ويباين الحق ﴿ **لست منهم فى شىء** ﴾ أى لست من تفرقهم ، أو من السؤال عن سبب تفرقهم ، والبحث عن موجب تحزبهم ، فى شىء من الأشياء ، فلا يلزمك من ذلك شىء ، ولا تخاطب به ، إنما عليك البلاغ ، وهو مثل قوله ﷺ : « من غشنا فليس منا » [1] أى نحن برآء منه ، وموضع ﴿ **فى شىء** ﴾ نصب على الحال . قال الفراء : هو على حذف مضاف ، أى لست من عقابهم فى شىء ، وإنما عليك الإنذار ، ثم سلاه الله تعالى بقوله : ﴿ **إنما أمرهم إلى الله** ﴾ فهو مُجَازٍ لهم بماتقتضيه مشيئته ، والحصر بإنما هو فى حكم التعليل لما قبله ، والتأكيد له « ثم » هو يوم القيامة ﴿ **ينبئهم** ﴾ أى يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ من الأعمال التى تخالف ما شرعه الله لهم ، وأوجبه عليهم ، وهذه الآية من جملة ما هو منسوخ بآية السيف .

قوله : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد ، بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به ، الممتثلين لما شرعه لهم ، بأنَّ من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات ، والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها ،

---

(١) جزء من حديث أبى هريرة أخرجه مسلم فى الإيمان (١٠١ / ١٦٤) وأبو داود فى البيوع (٣٤٥٢) والترمذى فى البيوع (١٣١٥) وابن ماجة فى التجارات (٢٢٢٤) .

فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، قال أبو على الفارسى : حسن التأنيث فى عشر أمثالها لما كان الأمثال مضافًا إلى مؤنث ، نحو ذهبت بعض أصابعه . وقرأ الحسن وسعيد بن جبير والأعمش: « فله عشر أمثالها » برفعهما .

وقد ثبت هذا التضعيف فى السنة بأحاديث كثيرة ، وهذا التضعيف هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة . وقد وردت الزيادة على هذا عمومًا وخصوصًا ، ففى القرآن كقوله : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ [البقرة : ٢٦١] وورد فى بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب ، وورد فى السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى ألوف مؤلفة . وقد قدمنا تحقيق هذا فى موضعين من هذا التفسير فليرجع إليهما .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ من الأعمال السيئة ﴿ **فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ من دون زيادة عليها على قدرها فى الخفة والعظم ، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده فى النار ، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها ، مما ورد تقديره من العقوبات ، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا ، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب فعلينا أن نقول : يجازيه الله بمثله . وإن لم تقف على حقيقة ما يجازى به ، وهذا إن لم يتب ، أما إذا تاب وغلبت حسناته سيئاته أو تغمده الله برحمته ، وتفضل عليه بمغفرته فلا مجازاة ، وأدلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحًا لا يبقى بعده ريب لمرتاب ﴿ **وهم** ﴾ أى من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة ﴿ **لا يظلمون** ﴾ بنقص ثواب حسنات المحسنين ، ولا بزيادة عقوبات المسيئين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث محمد أنزل عليه : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم** ﴾ الآية . وأخرج النحاس عنه فى ناسخه :﴿ **إن الذين فرقوا دينهم** ﴾ قال : اليهود والنصارى تركوا الإسلام ، والدين الذى أمروا به ﴿ **وكانوا شيعًا** ﴾ فرقًا وأحزابا مختلفة ﴿ **لست منهم فى شىء** ﴾ نزلت بمكة ثم نسخها : ﴿ وقاتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٣٦] . وأخرج أبوالشيخ عنه ﴿ **وكانوا شيعًا** ﴾ قال : مللاً شتى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله: ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم** ﴾ الآية، قال : هم فى هذه الأمة.

وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى ، والشيرازى فى الألقاب ، وابن مردويه عنه عن النبى ﷺ فى الآية ، قال :« هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة » ، وفى إسناده عبد بن كثير ، وهو متروك الحديث ولم يرفعه غيره ، ومن عداه وقفوه على أبى هريرة [١] .

---

(١) ابن جرير ٨/٧٨ وعزاه الهيثمى فى المجمع ٧/٢٦ للطبرانى فى الأوسط وقال : « رجاله رجال الصحيح ، غير معلل بن نفيل وهو ثقة » .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة فى الآية قال : هم الحرورية ، وقد رواه ابن أبى حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبى غالب عن أبى أمامة مرفوعا ولا يصح رفعه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن شاهين وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، وأبو نصر السجزى فى الإبانة ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : « يا عائشة ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا** ﴾ هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة . يا عائشة ، إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وهم منى برآء »(١) قال ابن كثير: هو غريب ولا يصح رفعه(٢) .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ قال رجل من المسلمين : يا رسول الله، لا إله إلا الله حسنة ؟ قال : « نعم أفضل الحسنات » ، وهذا مرسل ، ولا ندرى كيف إسناده إلى سعيد . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة مثله أيضا . وقد قدمنا الإشارة إلى أنها قد ثبتت الأحاديث الصحيحة بمضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها، فلا نطيل بذكرها ، ووردت أحاديث كثيرة فى الزيادة على هذا المقدار ، وفضل الله واسع ، وعطاؤه جم .

﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)** ﴾

لما بين سبحانه أن الكفار تفرقوا فرقًا ، وتحزبوا أحزابًا ، أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **إننى هدانى ربى** ﴾ أى أرشدنى بما أوحاه إلىَّ ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ وهو ملة إبراهيم عليه السلام ، و﴿ **دينًا** ﴾ منتصب على الحال كما قال قطرب ، أو على أنه مفعول ﴿ **هدانى** ﴾ كما قال الأخفش . وقيل : منتصب بفعل يدل عليه ﴿ **هدانى** ﴾ لأن معناه : عرَّفنى ، أى عرفنى دينًا. وقيل : إنه بدل من محل ﴿ **إلى صراط** ﴾ لأن معناه : هدانى صراطاً مستقيمًا كقوله تعالى : ﴿ ويهديكم صراطا مستقيما ﴾ [الفتح : ٢٠] وقيل : منصوب بإضمار فعل ، كأنه قيل : اتبعوا دينا .

---

(١) الطبرانى فى الصغير ١/ ٢٠٣ وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٣ : « فيه بقية ومجالد بن سعيد ، وكلاهما ضعيف » وقال ٧/ ٢٥: « إسناده جيد » وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٤/ ١٣٨ وقال : « غريب » والبيهقى فى الشعب ٥/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أورد ابن كثير ٣/ ١٣٥ رواية ابن مردويه ، وقال ذلك .

قوله : ﴿ **قيما** ﴾ قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف ، والتخفيف وفتح الياء ، وقرأ الباقون بفتح القاف وكسر الياء المشددة ، وهما لغتان : ومعناه : الدين الذى لا عوج فيه ، وهو صفة لـ ﴿ **دينا** ﴾ وصف به مع كونه مصدرا مبالغة ، وانتصاب ﴿ **ملة إبراهيم** ﴾ على أنها عطف بيان لـ﴿ **دينا** ﴾ ، ويجوز نصبها بتقدير: أعنى . والحنيف [1] المائل إلى الحق ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ فى محل نصب معطوف على ﴿ **حنيفا** ﴾ أو جملة معترضة مقررة لما قبلها .

قوله : ﴿ **قل إن صلاتى** ﴾ أمره الله سبحانه أن يقول لهم بهذه المقالة ، عقب أمره بأن يقول لهم بالمقالة السابقة. قيل : ووجه ذلك أن ما تضمنه القول الأول إشارة إلى أصول الدين ، وهذا إلى فروعها ، والمراد بالصلاة جنسها ، فيدخل فيه جميع أنواعها . وقيل : المراد بها هنا : صلاة الليل . وقيل : صلاة العيد . والنسك جمع نسيكة ، وهى الذبيحة كذا قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم ، أى ذبيحتى فى الحج والعمرة. وقال الحسن : دينى . وقال الزجاج : عبادتى ، من قولهم : نسك فلان هو ناسك ، إذا تعبَّد ، وبه قال جماعة من أهل العلم ﴿ **ومحياى ومماتى** ﴾ أى ما أعمله فى حياتى ، ومماتى من أعمال الخير ، ومن أعمال الخير فى الممات الوصية بالصدقات ، وأنواع القربات . وقيل : نفس الحياة . ونفس الموت ﴿ **لله** ﴾ قرأ الحسن : « نُسُكى » بسكون السين . وقرأ الباقون بضمها . وقرأ أهل المدينة:« محياى » بسكون الياء ، وقرأ الباقون بفتحها لئلا يجتمع ساكنان . قال النحاس : لم يجزه ، أى السكون ، أحد من النحويين إلا يونس ، وإنما أجازه لأن المدة التى فى الألف تقوم مقام الحركة . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وعاصم الجحدرى : « محيى » من غير ألف وهى لغة عليا مضر ، ومنه قول الشاعر :

سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

﴿ **لله رب العالمين** ﴾ أى خالصا له لا شريك له فيه ، والإشارة ﴿ **بذلك** ﴾ إلى ما أفاده ﴿ **لله رب العالمين .لا شريك له** ﴾ من الإخلاص فى الطاعة وجعلها لله وحده . قوله : ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ أى أول مسلمى أمته . وقيل : أول المسلمين أجمعين ؛ لأنه وإن كان متأخرا فى الرسالة فهو أولهم فى الخلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ الآية [الأحزاب : ٧] ، والأول أولى .

قال ابن جرير الطبرى : استدل بهذه الآية الشافعى على مشروعية افتتاح الصلاة بهذا الذكر ، فإن الله أمر به نبيه وأنزله فى كتابه ، ثم ذكرحديثا على أن النبى ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال : ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾

---

(١) الحنف: هوميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجنف: ميل عن الاستقامة إلى الضلال ، والحنيف: المائل إلى ذلك. قال عز وجل : ﴿ قانتا لله حنيفا ﴾ [النحل : ١٢٠] ، وقال : ﴿ حنيفا مسلما ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

[الأنعام : ٧٩] إلى قوله : ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ [(١)] . قلت : هذا هو فى صحيح مسلم مطولا [(٢)] ، وهو أحد التوجهات الواردة ، ولكنه مقيد بصلاة الليل كما فى الروايات الصحيحة، وأصح التوجهات الذى كان يلازمه النبى ﷺ ويرشد إليه هو :« اللهم باعد بينى وبين خطاياى »[(٣)] إلخ ، وقد أوضحنا هذا فى شرحنا للمنتقى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه هنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **إن صلاتى** ﴾ قال : يعنى المفروضة ﴿ **ونسكى** ﴾ يعنى الحج . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير: ﴿ **ونسكى** ﴾ قال : ذبيحتى . وأخرجا أيضا عن قتادة ﴿ **إن صلاتى ونسكى** ﴾ قال : حجى وذبيحتى . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ونسكى** ﴾ قال : ذبيحتى فى الحج والعمرة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ونسكى** ﴾ قال : ضحيتى . وفى قوله: ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ قال : من هذه الأمة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « يا فاطمة، قومى فاشهدى أضحيتك ، فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملتيه [(٤)] ، وقولى :﴿ **إن صلاتى** ﴾ إلى ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ » قلت : يا رسول الله، هذا لك ولأهل بيتك خاصة ، فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة ؟ قال : « لا بل للمسلمين عامة » [(٥)] .

﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)** ﴾

الاستفهام فى :﴿ **أغَيْر الله أبْغِى ربًا** ﴾ للإنكار ، وهو جواب على المشركين لما دعوه إلى عبادة غير الله ، أى كيف أبغى غير الله ربا مستقلا وأترك عبادة الله أو شريكا لله فأعبدهما معًا، والحال أنه رب كل شىء ، والذى تدعوننى إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له مخلوق

---

(١) أى آية الأنعام (٧٩) وآيتى الأنعام (١٦٢ ، ١٦٣) .

(٢) مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١ / ٢٠١) .

(٣) الحديث عن عائشة وأخرجه البخارى فى الدعوات (٦٣٦٨) و(٦٣٧٥) ومسلم فى المساجد (٥٩٨/ ١٤٧) وأبو داود فى الصلاة (٧٨١) والترمذى فى الدعوات (٣٤٩٥) وقال : « حسن صحيح ».

(٤)فى المطبوعة : « عملته » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة وهو ثابت فى مصادر التخريج التالية .

(٥) صححه الحاكم ٤/ ٢٢٢ وتعقبه الذهبى بأن فيه أبا حمزة ضعيف جدًا ، وإسماعيل ليس بذاك . وأخرجه البيهقى فى الشعب (٧٣٣٨) والطبرانى ١٨/ ٢٣٩ (٦٠٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٢٠ : « فيه أبو حمزة الثمالى وهو ضعيف » .

مثلى لا يقدر على نفع ولا ضرّ ، وفى هذا الكلام من التقريع والتوبيخ لهم ما لا يقادر قدره ، و﴿ غير ﴾ منصوب بالفعل الذى بعده ، و﴿ ربا ﴾ تمييز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصبا لمفعولين . قوله : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ أى لا يؤاخذ بما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها ، فكل كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وقوله : ﴿ لتجزى [١] كل نفس بما تسعى ﴾ [طه : ١٥] . قوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وِزْرك ﴾ [الشرح : ٢] وهو هنا الذنب ، ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] قال الأخفش : يقال : وزر يُوزر ، ووزر يزر وزرا، ويجوز إزرا ، وفيه ردّ لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه ، والواحد من القبيلة بذنب الآخر . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية فى الآخرة وكذلك التى قبلها لقوله تعالى : ﴿ واتّقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] ومثله قول زينب بنت جحش : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » [٢] والأولى حمل الآية على ظاهرها ، أعنى العموم ، وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التى تحملها العاقلة ونحو ذلك فيكون فى حكم المخصص بهذا العموم ويقر فى موضعه ، ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وليحملُنَّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : ١٣] فإن المراد بالأثقال التى مع أثقالهم هى أثقال الذين يضلونهم كما فى الآية الأخرى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [النحل : ٢٥] ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ فى الدنيا ، وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين .

قوله : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ خلائف : جمع خليفة ، أى جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة . قال الشماخ :

أصيبهم وتخطئنى المنايا ... وأخلف فى ربوع عن ربوع [٣]

---

(١) فى المطبوعة « ولتجزى » وهو تحريف .

(٢) البخارى فى الفتن (٧٠٥٩ ، ٧١٣٥) ومسلم فى الفتن (٢٨٨٠ / ١ ، ٢) والترمذى فى الفتن (٢١٨٧) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٣) .

(٣) ومثله قول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

والخليفة : السلطان الأعظم .

وأنشد الفراء :

أبوك خليفة ولدته أخرى ... وأنت خليفة ذاك الكمال

والجمع : الخلائف .

أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضا ، أو أن هذا النوع الإنسانى خلفاء الله فى أرضه ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ فى الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم ، و﴿ **درجات** ﴾ منصوب بنزع الخافض ، أى إلى درجات ﴿ **ليبْلُوكم فيما آتاكم** ﴾ أى ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور ، أوليبتلى بعضكم ببعض ، كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ [الفرقان : ٢٠] ثم خوفهم ، فقال :﴿ **إن ربك سريع العقاب** ﴾ فإنه وإن كان فى الآخرة فكل آت قريب ، كما قال : ﴿ وما أمْر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ [النحل : ٧٧] ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال : ﴿ **وإنه لغفور رحيم** ﴾ أى كثير الغفران والرحمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تزر وازرة** ﴾ قال : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾ قال :أهلك القرون الأولى فاستخلفنا فيها بعدهم ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ قال : فى الرزق.

obeikandl.com